تفسير
سورة المؤمنون

أ.د. السيد عبد الحليم محمد حسين

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تفسير
سورة المؤمنون

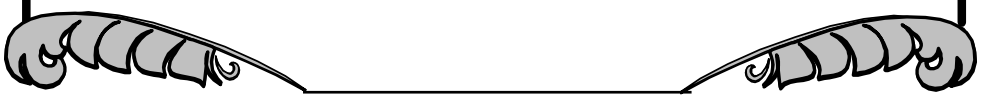

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سورة المؤمنون

بين يدى السورة

أ) **اسمها**: سميت المؤمنون لذكر صفات المؤمنين فيها، أو هى سورة الإيمان بكل قضاياه ودلائله وصفاته التى تميز شخصية المؤمن.

وقد وردت تسمية هذه السورة فى السنة عن عبد الله بن السائب قال: صلى بنا رسول الله الصبح بمكة فاستفتح سورة المؤمنين حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر موسى وعيسى أخذت النبى سعلة فركع.

ومما جرى على الألسنة أن يسموها سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ (المؤمنون: ١)، ويسمونها أيضا سورة الفلاح[١].

ب) فضلها: عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ إذا أنزل عليه الوحى سمع عند وجهه دويّ كدويّ النحل، وأنزل عليه يومًا فمكثنا ساعة فسرى عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، - ثم قال - أنزل علىّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة - ثم قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: ١)، حتى ختم عشر آيات[٢].

جـ) سبب نزولها: أنها تناولت قضيتى التوحيد والإيمان شأن جميع السور المكية.

د) مكيتها أو مدنيتها: هى مكية بالاتفاق.

هـ) عدد آياتها: هى السورة السادسة والسبعون فى عداد نزول سور القرآن نزلت بعد سورة الطور. وقيل: الملك، وآياتها: مائة وسبع عشرة فى عدد الجمهور. وعدها أهل الكوفة مائة وثمان عشرة.. فالجمهور عدوا ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ

---

(١) التحرير والتنوير : ابن عاشور، ١٠ / ٢٨١٤ .

(٢) الجامع للقرطبى ١٢/ ٩٤ والحديث رواه الترمذى فى سننه رقم ٣٠٩٧ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ آية (المؤمنون: ١٠ - ١١)، وأهل الكوفة عدوا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (المؤمنون: ١٠ - ١١). وما بعدها آية أخرى[1].

و) ومحورها: أنها تتحدث عن الوحدانية وإبطال الشرك، ونقض قواعده، والتنويه بالإيمان وشرائعه، فصفات المؤمنين، ودلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق وإرسال الرسل تترى، وموقف أقوامهم منهم، والتوجيهات الربانية لرسوله ﷺ وما ذكر من بعض اللقطات من مشاهد يوم القيامة، كل ذلك يثبت وحدانية الله، ويبطل الشرك لذا عقب فى نهاية السورة بتقرير التوحيد المطلق، والتوجه إلى الله وحده بطلب المغفرة والرحمة.

فاسمها مرتبط بموضوعها، لذلك جاءت افتتاحيتها مناسبة مع خاتمتها، حيث أثبتت الفلاح للمؤمنين، ونفته عن الكافرين فى الخاتمة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٧)، ومطلعها اتسم بأسلوب الترغيب فى الإيمان والتوحيد، وبالترهيب من الشرك فى خاتمتها. وقد ارتبطت أيضا بسورة الحج حيث وجهت المؤمنين إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والجهاد فى سبيل الله، وفعل الخيرات، وكان افتتاح سورة المؤمنين إبرازًا لجزاء وثواب من يلتزم بهذه الصفات. وهذا هو الكرم الربانى والثواب العظيم ومضمون سورة المؤمنون يشبه مضمون سورة الحج التى فيها الخشية من الساعة وذكر دلائل قدرة الله فى خلق الإنسان والكون، وفصلت موقف الأمم من الرسل وجزاء المؤمنين، وسوء عاقبة الكافرين، والتوجه لفعل الطاعات والخيرات وهى نفس المواضيع التى تناولتها سورة المؤمنون.

❁ ❁ ❁

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور ١/ ٢٨١٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صفـــــات المؤمنـــــين

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ﴾

(المؤمنون: ١ - ١٠)

إجمـــال المعنـــى

يُبشّـــر الله المـؤمنين بـالفلاح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (المؤمنـون: ١)، فـازوا وسعدوا... الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صـفاتهم الكاملـة أنهـم ﴿ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٢)، والخشوع فى اللغة: الخضـوع والتواضـع، والخشوع فى الصلاة: هو حضور القلب بين يدى الله مستحضرا عظمتـه وسـلطانه، متـدبرا لمـا يقولـه ويفعلـه فى صـلاته مـن بـدايتها حتـى نهايتهـا، فتنتفـى بـذلك الوساوس.. فالصلاة التى لا خشوع فيها، ولا حضـور فلـب، لا قيمـة لهـا، وإن كانت مُجزئة مثابا عليها فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها.

سبب نزول الآية: قيل: إنها نزلت من أجل أن القوم كانوا يرفعون أبصـارهم فيها إلى السماء قبل نزولها، فنُهوا بهذه الآية عن[1] ذلك.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣)، وهو الكلام الـذى لا خـير فيه ولا فائدة، هم تاركوه، ترفعا عنه، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضـهم عن المحارم من باب أولى، وحفظ اللسان حفظ لجميع الأعضاء، لـذا قـال النبـى ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كلـه؟» قلـت: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسان نفسه وقال: «كفّ عليك هذا، قلـت: وهـل نحـن

(١) الجامع: الطبرى. ٩ / ١٩٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله؟ قال: ثكلتك أمك، وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم[1]» فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة، كف ألسنتهم عن اللغو والمحرمات والحرص على أداء الزكاة:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٤)، مؤدون لزكاة أموالهم، طهرة لأنفسهم وأموالهم ومجتمعهم، فأحسنوا فى طاعة الله، فى الخشوع فى الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥)، عن الزنا، ومقدماته، كالنظر، واللمس، ونحوهما ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ (المؤمنون: ٦)، الزوجة الشرعية، والأمة من الإماء المملوكات ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (المؤمنون: ٦)، بقربهما، لأن الله تعالى أحلهما ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ (المؤمنون: ٧)، غير الزوجة، والأمة المملوكة، وهؤلاء حكم الله عليهم بالغفلة ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ (المؤمنون: ٧)، الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرئون على محارم الله.. وعموم هذه الآية يدل على تحريم كل نكاح ليس شرعيا، كنكاح المتعة وغيره ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ (المؤمنون: ٦)، أسيرات الحرب.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨)، مراعون لها، حريصون على أدائها وتنفيذها.. وهذا عام فى جميع الأمانات التى هى حق لله، والتى هى حق للعباد، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين، وكذلك العهد الذى بينهم وبين ربهم، والذين بينهم وبين العباد، وهى الالتزامات والعقود التى يعقدها العبد فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩)، يداومون عليها بخشوع تام، فى أوقاتها وحددوها، وشروطها وأركانها، كاملة غير منقوصة، ثم تذكر الآيات جزاء من يتصف بتلك الصفات ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠)، ﴿ ٱلَّذِينَ

(١) مسند الإمام أحمد رقم ٢١٠٠٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١١)، لهم الفردوس الذى هو أعلى الجنة، ووسطها وأفضلها.. أو المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم ومراتبهم كل بحسب حاله ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١١)، لا يبغون عنها حولا؛ لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله، وليس بعده نعيم.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- وعد الله المؤمنين بالفلاح، والفلاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة، فلاح الفرد والجماعة، وعد الله لا يخلف الله وعده، فلاح فوق التصور والإدراك.

والتعبير بـ قد يجوز أن يكون تأكيدًا لفلاح المؤمنين، ويجوز أن يكون تقريبًا للماضى من الحال، لأن قد تقرب الماضى من الحال حتى تلحقه بحكمه كقول: قد قامت الصلاة قبل حال قيامها، فيكون المعنى: إن الفلاح قد حصل لهم وإنهم عليه فى الحال.

- وصف الله عباده المؤمنين المستحقين للفلاح والفوز بصفات، وأوجب عليهم أن يتصفوا بها، فلا فلاح بدونها، لأنها صفات تميز حياة الإنسان عن حياة الحيوان.
- يخشعون فى صلاتهم فتخشع جوارحهم وأرواحهم، فمدحهم بالخشوع فى الصلاة والمحافظة عليها؛ لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها فإنه مذموم ناقص.
- ويعرضون عن اللغو، ليتفرغوا لذكر الله وطاعته، ويجوز للمؤمن أن يروح عن نفسه بين الحين والحين، ولكن هذا شىء آخر غير الهذر واللغو.
- ويؤتون الزكاة، طهارة للقلب والمال، فهى تأمين اجتماعى للأفراد ووقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال.
- تحريم الزنا طهارة للروح والبيت والجماعة، ووقاية للنفس والأسرة والمجتمع، والجماعة التى تنطلق الشهوات بغير حساب جماعة قذرة هابطة فى سلم البشرية، ويحرم نكاح المتعة، وكل نكاح غير شرعى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- النسوة اللاتى يجئن إلى المعسكر الإسلامى أسيرات، تقضى قاعدة التعامل بالمثل باسترقاقهن إلا أن يتحررن لسبب من الأسباب الكثيرة التى جعلها الإسلام سبلاً لتحرير الرقيق، ولعل هذا الاستمتاع ملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن، كى لا يشبعنها عن طريق الفوضي القذرة فى المخالطة الجنسية كما يقع فى زماننا هذا مع أسيرات الحرب – وهذا ما حرمه الإسلام! وذلك حتى يأذن الله فيرفعن إلى مرتبة الحرية.

ويشترط فى حل المملوكة أن تكون كلها فى ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها ليست مما ملكت يمينه، بل هى ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك فى المرأة الحرة زوجان فلا يجوز أن يشترك فى الأمة المسلمة سيدان.

- أداء الأمانات إلى أهلها، فهى صفة دائمة لهم فى كل حين، ولا تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات، وترعى فيها العهود، والأمانات والعهود تشمل كل ما بين العبد وخالقه، وما بين العبد والمخلوقين.
- وكرر الصلاة مرة أخرى لأهميتها، فلا يفوتها كسلًا، ولا يضيعها إهمالًا، ولا يقصر فى إقامتها كما ينبغى أن تقام.. إنما المؤمنون يؤدونها فى أوقاتها كاملة الفرائض والسنن، ولقد بدأت صفات المؤمنين بالصلاة وختمت بالصلاة للدلالة على عظيم أهميتها فى بناء الإيمان بوصفها أكمل صورة من صور العبادة والتوجه إلى الله.
- جعل الله ثوابا لمن يتصف بتلك الصفات، أن يدخله الفردوس الأعلى، وتلك غاية الفلاح الذى كتبه الله للمؤمنين.
- آيات السورة تتحدث عن التوحيد والإيمان بالله، فلما ذكر الله سبحانه وتعالى صفات المؤمنين ذكر نتيجة توحيدهم وهو الفلاح والنجاح فى الفردوس الأعلى.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أدلـــــة وحدانيـــــة الله

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(المؤمنون: ١٢ - ٢٢)

تمهيـــــد

لما ذكر الله صفات المؤمنين الفالحين، ثنى بذكر دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق كما أن فى عرض تلك الأطوار – الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى إلى نهايتها فى الحياة والدلائل الكونية: فى خلق المخلوقات بهذا التتابع الدقيق المطرد، ما يشير إلى أن الإيمان بالخالق المدبر، والاتصاف بصفات المؤمنين هو وحده الطريق إلى بلوغ الكمال فى الحياتين: الدنيا والآخرة.

❁ ❁ ❁

إجمـــال المعنـــى

ذكر الله فى هذه الآيات أطوار الآدمى وتنقلاته من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه. فذكر ابتداء خلق آدم ﷺ وأنه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (المؤمنون: ١٢)، قد سُلّت وأُخِذَت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض منهم الطيب والخبيث، وبين ذلك، والسّهْل والحزن، ثم يستطرد فى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ذكر بقية المراحل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ (المؤمنون: ١٣)، جنس الآدميين ﴿نُطْفَةً﴾ (المؤمنون: ١٣) تخرج من بين الصلب والترائب فتستقر ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٣) وهو الرَّحم، القرار المكين.. ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، التى قد استقرت قبل ﴿عَلَقَةً﴾ (المؤمنون: ١٤)، دما أحمر، بعد مضى أربعين يومًا من النطقة ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، بعد أربعين يومًا ﴿مُضْغَةً﴾ (المؤمنون: ١٤)، قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يمضغ من صغرها ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ (المؤمنون: ١٤)، صلبة، قد تخللت اللحم بحسب حاجة البدن إليها ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ (المؤمنون: ١٤)، جعلنا اللحم كسوة للعظام كما جعلنا العظام عمادًا للحم، وذلك فى الأربعين الثالثة ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جمادًا، إلى أن صار حيوانًا، وفى الحديث الصحيح: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح[1].. الحديث» فإذا نفخ فيه الروح فقد تهيأ للحياة والنماء، وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، لأن الخلق المذكور قبله كان دون حياة ثم نشأ فيه خلق الحياة[2]» وأثنى الله على نفسه، وهو المستحق سبحانه للثناء والمجد ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون:١٤)، تعالى وتعاظم وكثر خيره، فخلقه كله حسن، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (التين: ٤)، ولهذا كان خواص أفضل المخلوقات وأكملها.

---

(١) صحيح البخارى حديث رقم ٣٠٨٥.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٢٨٢٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٥)، الخلق، ونفخ الروح ﴿لَمَيِّتُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٥)، فى أحد أطواركم وتنقلاتكم ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٦)، فتجازون بأعمالكم، حسنها وسيئها.

لما ذكر تعالى خلق الآدمى، ذكر سكنه، وتوفر النعم عليه من كل وجه فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ ﴾ (المؤمنون: ١٧)، سقفا للبلاد، ومصلحة للعباد ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ (المؤمنون: ١٧)، سبع سماوات طباقًا، كل طبقة فوق الأخرى.

قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٧)، فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق، فعلمنا أيضا محيط بما خلقنا، فلا نغفل مخلوقا ولا ننساه، ولا نخلق خلقا فنضيعه، وكثيرًا ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه، لأن خلق المخلوقات، من أقوى الدلائل العلمية والعقلية، على علم خالقها وحكمته. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ (المؤمنون: ١٨)، يكون رزقا لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم، فلا ينقص فتختل الحياة، ولا يزيد زيادة لا تحتمل، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله، ثم صرفه عند التضرر من دوامه، ﴿فَأَسْكَنَّهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (المؤمنون: ١٨)، أنزله عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقُدْرة مُنزّله جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضًا معدا فى خزائن الأرض، بحيث لم يذهب نازلاً حتى لا يوصل إليه، ولا يبلغ قعره ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٨)، إمّا بأن لا تنزله، أو تنزله، فيذهب فى أغوار الأرض لا يوصل إليه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته، ويقدروا عدمها ماذا يحصل به من الضرر.

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ ﴾ (المؤمنون: ١٩)، بذلك الماء ﴿جَنَّـٰتٍ ﴾ (المؤمنون: ١٩)، بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ ﴾ (المؤمنون: ١٩)، خص الله تعالى هذين النوعين، معه أنه سبحانه ينشئ منه غيرهما لفضلهما ومنافعهما التى فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام فى قوله ﴿لَّكُمْ فِيهَا ﴾ (المؤمنون: ١٩)، فى تلك الجنات ﴿فَوَٰكِهُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٩)، متعددة وكثيرة ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ (المؤمنون: ٢٠)، وهى شجرة الزيتون.

أى: جنسها، خصت بالذكر؛ لأن مكانها خاص، ولمنافعها، التى ذكر بعضها فى قوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٠)، فيها الزيت، الذى هو دهن، يستعمل استعماله من الاستصباح به، واصطباغ الآكلين، أى: يُحصل إدامًا للآكلين، وغير ذلك من المنافع.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ (المؤمنون: ٢١)، ومن نعمه عليكم، أن سخر لكم الأنعام: الإبل والبقر، والغنم، فيها عبرة للمعتبرين، ومنافع للمنتفعين ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ (المؤمنون: ٢١)، من لبن يخرج من بين فرث ودم، خالص سائغ للشاربين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ (المؤمنون: ٢١)، من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها، وجلودها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (المؤمنون: ٢١)، أفضل المآكل، من لحم وشحم ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٢)، جعلها سفنا لكم فى البر، كما جعل لكم السفن فى البحر، تحملكم، وتحمل متاعكم، قليلاً كان أو كثيرًا، فالذى أنعم بهذه النعم، هو الذى يستحق كمال الشكر، وكمال الثناء، وتوحيده، والاجتهاد فى عبوديته، وأن لا يُستعان بنعمه على معاصيه.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- ذكر الله فى هذه الآيات أدلة واضحة بينة، تدل بكل وضوح على وحدانيته سبحانه، وقدرته العظيمة، لا يغفل عنها إلا هالك، ولا ينكرها إلا جاحد.

التفكير فى خلق الله عبادة يؤجر عليها، وطريق يزيد الإيمان ويثبته فمن عظيم قدرته مراحل خلق الإنسان، من البداية إلى النهاية، وهذا ما يثبت وجود الخالق سبحانه.

- عندما يتوصل العلماء إلى صنع جهاز، يعجب الناس ويدهشوا، فأين هذا من سير الجنين فى مراحله تلك وأطواره وتحولاته. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

- الآيات تدل على البعث، فالإيمان به واجب، والله القادر على خلق الإنسان أول مرة، قادر على خلقه مرة أخرى.
- العاقل ينتفع بدلائل الإيمان الموجودة فى الأنفس والآفاق المذكورة فى هذه الآيات، ولا يغفل عنها، والربط بين هذه الدلائل الكونية، وبين أطوار النشأة الإنسانية فى سياق السورة، ليُعطى مساحة واسعة من التفكير والتأمل.
- خلق سبع سماوات مستواها أعلى من مستوى الأرض فى هذا الفضاء – خلقها الله بتدبير وحكمة، وفيها دليل القدرة الربانية.
- نزول المطر من السماء نعمة عظيمة، وهو ينزل بقدر، بحكمة وتدبير، لا أكثر فيغرق ويفسد، ولا أقل فيكون الجدب والمحل، ولا فى غير أوانه فيذهب بددا بلا فائدة، وما أشبهه وهو مستقر فى الأرض، بماء النطفة وهو مستقر فى الرحم، بتدبير الله، لتنشأ عنه الحياة.
- أنشأ الله بالماء جنات من النخيل والأعناب نموذجان من الحياة فى عالم النبات – كما ينشأ الناس من ماء النطفة فى عالم الإنسان – نموذجان قريبان لتصور المخاطبين إذ ذاك بالقرآن، يشيران إلى نظائرهما الكثيرة التى تحيا بالماء وخص من الأنواع الأخرى شجرة الزيتون المباركة، وهى من أكثر الشجر فائدة بزينتها.

وطعامها وخشبها، وأقرب منابتها فى بلاد العرب طور سيناء عند الوادى المقدس المذكور فى القرآن، لهذا ذكر المنبت على وجه خاص.

- سخر الله بقدرته للإنسان مخلوقات ينتفع بها، فيها عبرة لمن يعتبر، فذكر منها اللبن السائغ اللطيف الذى يشربه الناس منها خارج من بطونها، فهو مستخلص من الغذاء الذى تهضمه وتمثله، فتحوله غدد اللبن إلى هذا السائل السائغ اللطيف، وهذه معجزة إلهية، وأباح أكل لحوم الإبل والبقر، والضأن والمعز، ولم يحل له تعذيبها، ولا التمثيل بها، لأن الأكل يحقق فائدة ضرورية فى نظام الحياة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- ربطت الآيات بين حمل الإنسان على الأنعام، وحمله على الفلك، بوصفهما مسخرين بنظام الله الكونى، الذى ينظم وظائف الخلائق جميعا، والكون كله مستسلم لله، يسير وفق سنته وإرادته.
- من يتدبر دلائل الإيمان فى الإنسان والكون، تدبر الفهم والإدراك، فإنه لا يملك إلا أن يوحد الله ويخضع له، ولا يعرض عن تلك الدلائل والآيات العظيمة إلا غافل، أو جاحد طمست بصيرته عن مولاه جل علاه.

ولإتمام الفائدة إليك تلك الإضافة

التفصيلية للآيات المتقدمة

بعنـــــوان:

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤)

وهـذا لإتمـام الفائـدة

وتأتى [١] الآيات متلاحقةً تبيِّن بعض ما فى الكون من دلائل، ومن عِبَر، والسؤال الآن: ما العلاقة بين هذه الآيات الكونية والآيات المتقدمة فى صفات المؤمنين؟ أى: يا أيها الإنسان؛ إذا أردت أن تكون مؤمنًا متحلِّيًا بصفات المؤمنين، وارثًا لفردوس رب العالمين؛ فتعرَّف إلى الله من هذا الطريق؛ طريق الكون، فالله سبحانه وتعالى رسم الطريق، وبيَّن الهدف، فالهدف هو أن تكون مؤمنًا خاشعًا فى صلاتك، معرضًا عن اللغو، فاعلاً للزكاة، حافظًا لفرجك، راعيًا لأمانتك وعهدك، محافظًا على صلواتك، فإذا كانت كذلك؛ ورثت جنة الفردوس، وأما الطريق؛ فأن تنظر فى آيات الله، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ (الذاريات: ٢٠)، وقال عز وجل: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (يونس: ١٠١)، وقال سبحانه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ (عبس: ٢٤)،

(١) الدكتور النابلسي / تفسير النابلسي.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ (الطارق: ٥)، وقال ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ (المرسلات: ٥٠)، فإنّ الله سبحانه وتعالى يّبين لنا أن طريق الإيمان به أن تتأمل فى هذه الأقوال، وأن تقف عند كل آية مستجليًا وجه العظمة فيها، فكلما ارتقت معرفتك؛ خشع قلبك، فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطر: ٢٨)، ﴿ إِنَّمَا ﴾ (الأنفال: ٢)، أداة تفيد القصر؛ بمعنى: أن العلماء وحدهم – ولا أحد سواهم – يخشون الله عزَّ وجل.

هل أعمل الإنسان فكره فى هذا الماء عندما يشرب كأسًا منه؟ وهل فكّر ما مصدر هذا الماء؟ كيف كان مِلحًا أجاجًا فصار عذبًا فراتًا؟وهل عرف أن الشمس، والقمر، والسماء، والأرض، والبحار، والهواء، والسحب، والغيوم، وطبقات الأرض كلها أسهمت فى هذا الكأس من الماء؟ وقد يأكل الإنسان طعامًا، وقد يأكل فاكهةً، وقد ينظر إلى ابنه الصغير، وقد ينظر إلى جبل شامخ، وقد يمتِّع عينيه ببحر هائج، وقد يرى جبلاً أخضر، وقد يرى واديًا عميقًا، وقد يرى زهرةً فوَّاحة، وقد يشمُّ رائحةً عطرة، ولكنه يمرُّ على آيات الله هذه مرور المتمتع، أو مرور المستغل، أو مرور التاجر، أو مرورًا سطحيًا، من دون أن يقف عند خالق هذه الآية، وعند عظمته، وعند أمره، وربنا عزَّ وجل وصف الكفار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (محمد: ١٢).

فهؤلاء الذين يمرُّون على الآيات فى السماوات والأرض وهم عنها غافلون شأنهم كشأن البهائم، فربنا عزَّ وجل أيقظنا بهذه الآيات؛ أي: أنَّك أيها الإنسان لا تُفلح إلا إذا كنت مؤمنًا خاشعًا فى صلاتك، معرضًا عن اللغو، فاعلاً للزكاة، حافظًا لفرجك، راعيًا لأمانتك، حافظًا لصلواتك، وإذا أردت أن تكون كذلك؛ فتأمَّل فى ملكوت السماوات والأرض.

و ﴿ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ (المؤمنون: ١٢)، فى قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (المؤمنون: ١٢)، يعنى: مطلق الإنسان، أو يعنى: الإنسان الأوَّل؛ وهو سيدنا آدم؛ لأن الله سبحانه وتعالى خلقه من طين، و ﴿سُلَٰلَةٍ ﴾ (المؤمنون: ١٢):

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هى الخليط؛ أى: خلقه من أخلاطٍ من الطين، فجمعها الله سبحانه وتعالى، ونفخ فيها من روحه، فكانت سيدنا آدم، أو أن ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ (المؤمنون: ١٢)، بمعنى: السلسلة؛ أى: خلقه فى مراحل متلاحقة كالسلسلة؛ من طين؛ ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، فهذه مراحل مرَّ بها خلق الإنسان، فإما أن تكون ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ (المؤمنون: ١٢)، الأخلاط، وإما أن تكون السلسلة، وعلى كلٍّ خُلِقَ الإنسان الأول من طين، ولكن الله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل تكاثر ذُرِّيَّته عن طريق التوالد، وعن طريق النطفة والبويضة، وعن طريق الرحم فى الجنين؛ لهذا فى آياتٍ أخرى يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ (البقرة: ٢١)، أى: لا يستحقُّ العبادة إلا الخالق، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

وفى قوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢)، بيان للأصل المهين، فالإنسان أحيانًا يعلو وينسى أنه من صلصال من طينٍ، وينسى أنه من ماءٍ مهين يستحيى به، خرج من عورةٍ، ودخل فى عورةٍ، ثم خرج من عورة، قال إيليا أبو ماضى أحد الشعراء المعاصرين:

نسى الطين ساعةً أنه طينٌ ... حقير فصال تِيْهًا وعَرْبَد

وكسا الخَزَّ جسمه فتباهى ... وحوى المال كيسه فتمرَّد

وربنا عزَّ وجل لم يقل: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم خلقناه نطفةً، لا، بل قال: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ﴾ (المؤمنون: ١٣)؛ أى: شاءت مشيئتنا أن يكون توالده وتكاثره فى ذريته عن طريق التوالد، فجعلنا هذا النظام، ونظام التكاثر مبنى على أساس النطفة، والنُّطَف يجرى تخليقها وتصنيعها فى ثمانى عشرة مرحلة، وقد تستغرق أيامًا كثيرةً تزيد على عشرين يومًا حتى تصبح جاهزة، وفى اللقاء الواحد يُفْرِزُ الإنسان أكثر من ثلاث مئة مليون حوين منوى، وهذه الحوينات تنتقل من عُنُق الرحم إلى القنوات، إلى أن تلتقى بالبويضة، وتختار البويضة أقوى حوين من بين تلك الحُوَينات، وهذا لا يعلمه إلا الله.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والرحم قرار مكين، ومعنى ذلك: أنَّك إذا أخذت خطًا متوسطًا للمرأة طولاً وخطًا متوسطًا عرضًا؛ يتعامدان عند الرحم، فالرحم هو الوسط الهندسى تمامًا للمرأة، كما أنه فى بدايات الحمل يحافظ على النطفة، فالرحم محاطٌ بجدرانٍ عظميَّةٍ من كل الجهات فى مراحله الأولى، وهى عظام الحوض فى المرأة، والنطفة تعلق على جدار الرحم بعد أن تلقِّح البويضة على نحوٍ مكين، فالبويضة الملقحة مستقرةٌ بتمكّن على جدار الرحم، والرحم محاطٌ بجُدُرٍ من العظام فهو فى مكانٍ مكين، وهناك أربطةٌ تربط الرحم من كل الجهات؛ كى لا يتأثَّر بحركة الأم، فانظر إلى حكمة الله عزَّ وجل كيف أنه جعل النطفة فى مكان مكين، كما أنه سبحانه وتعالى جعل الدماغ محفوظًا فى الجمجمة، والجمجمة عُلْبَةٌ عظميَّة فيها مفاصل ثابتة، وهى خطوط منكسرة تفصل بين أجزائها فراغات بينيّة، ووظيفتها أن تمتَّص الصدمات، فإذا ارتطم الطفل بالأرض، وسمعت دويَّ رأسه إلى مكانٍ بعيد؛ فاطمئن؛ إنه فى سلامة؛ لأن هذه الفراغات البينية تراصَّت فامتصَّت الصدمة، إذًا الدماغ شىء خطير جدًا فى الجمجمة، ولا يقل عنه خطرًا النخاع الشوكى فى سلسلة، والعين مهمة جدًا فى محجر، والقلب المضخة الأساسية فى القفص الصدرى، ومعامل الدم داخل العِظام، والجنين داخل عظم الحوض.

هذه النطفة ينشأ لها فى الجدار الخارجى استطالات تُعِينُ على الالتصاق بجدار الرحم، وجدار الرحم يغذِّى هذه الاستطالات، ويرحِّب بها؛ كى تعلق هذه البويضة الملقَّحة، فعندئذٍ تسمى علقة، لا لأنها قطعة دم جامدة، بل لأنها تعلق بجدار الرحم بمجموعة وسائل بعضها من الرحم، وبعضها من العلقة نفسها، ثم تكبر هذه العلقة، وتتوضَّح بعض معالم الجنين، فيبدو رأسه وجذعه، فتبدو فى رأسه عينان، ويبدو فى جذعه القلب، فهذه المضغة قطعةٌ من اللحم فيها ملامح أولية لتخليق هذا الجنين، وقد ذكرت هذا مفصلاً فى موضع سابق، ثم تنشأ العظام، وبعدها تُكسى باللحم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والذى يلفت النظر هذه الفاءات المتتالية فى الآية: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ (المؤمنون: ١٤)، والفاء تفيد الترتيب على التعقيب، وفى مرحلة واحدة قال: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ (المؤمنون: ١٤)، فجاءت ﴿ثُمَّ﴾ (المؤمنون: ١٤)، التى تفيد الترتيب مع التراخى، وأحدث ومكتشفات علم الأجنة أن النطفة فى الأسبوع الثانى والثالث يتباطأ نموها؛ لأنها مشغولة بتوفير مصادر رزقها من جدار الرحم، وهذا التباطؤ عَبَّرَ الله عنه بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ (المؤمنون: ١٤)، إذًا هذا الكلام كلام خالق الأكوان، كلام الذى يخلق الأجنة فى بطون الأمهات.

فالإنسان فى الأصل هو نقطة الحوين المنوى مع البويضة التى لا تُرى بالعين المجردة، ولا تُرى إلا تحت المجهر، وفى بعض الكتب صور لهذه الحوينات والبويضات التى لا تراها بعينك، وبعد تسعة أشهر ترى طفلاً كامل الخلق، له رأسٌ، وجذعٌ، وأطراف، وله أعصابٌ وشرايين، وله عضلاتٌ وعظام، وفيه سمعٌ وبصر، وفيه فمٌ وأنف، وفيه شعر وجِلد، وفيه مرئ ورُغامى، ولسان المزمار، ومعدة، وأمعاء، وكبد، وبنكرياس، وطحال، وصفراء، وكظر، وكليتان، وحالب، ومثانة، وجهاز إفراز، إنه تكوين يأخذ بالألباب! وبعدئذٍ هذا الطفل يبتسم، ويضحك، وبعدئذٍ يتكلَّم، ويحاول أن يمشى، فإذا جاءت أمُّه؛ يُقْبِلُ عليها، وما زال الإنسان يرقى فى مدارج المعرفة إلى أن يصبح إنسانًا سويًا، من حالٍ إلى حال؟ .. فسبحان الله وتعالى.

وربما كان جنين أىِّ حيوانٍ مشابهًا لجنين الإنسان، فكل حيوان يتكاثر عن طريق الولادة له نطفة وبويضة، وهناك تلقيح بينهما، وتصبح هذه البويضة المُلَقَّحة علقة، فمضغة، فعظام، فعضلات كالإنسان.

ولكن قال تعالى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، وهذه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الآيــة دقيقة جدًا، فالإنسان خَلْق آخر، إنه مُكَرَّم، كرَّمه الله سبحانه وتعالى حينما أعطاه عقلاً، وأعطاه نطقًا، وأعطاه أمانةً، وأعطاه كونًا، وأعطاه اختيارًا، فلا مجال لأن تقيم موازنة بين جنين حيوان وجنين إنسان، فجنين الدابة يكبر ويكــبر، وبعــد ذلك تحدث الولادة، لكن يبقى دابة، وأما جنين الإنسان؛ فقد يُصبح فى مستقبل أيامه عبقريًا، وقد يصبح مصلحًا إجتماعيًا، أو عالمًا جليلًا، أو مخترعًا، أو قائدًا مُحَنَّكًا، أو ضابطًا كبيرًا، أو صانعًا ماهرًا، أو طبيبًا حاذقًا، قال سبحانه: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ (الرحمن:١- ٤)، فهذا الإنسان خُلق خلقًا آخر؛ لأنه خُلق لمهمة عالية جدًا.

فقد خُلِقَ ليكون أول المخلوقات، فالكون كله مسخَّرٌ من أجلـه، وقـد حُمِّـل الأمانة، وكُلِّف بمعرفة الله عزَّ وجل، وكُلِّف بأن يزكِّى نفسه.

هناك فرقٌ نوعى بين الإنسان والحيوان، فحيــاة الحيوان لمْ ترتِــق، كحيــاة القرود مثلاً، فهل أنشأت القرود مساكن فخمة؟ وهـل عملـت تدفئـة مركزيـة؟ أو قـادت طـائرة؟ أو اخترعتهـا؟ أو اخترعـت سـيارة مـثلاً؟ أو أجهـزة نقـل؟ أو أجهزة إعلام؟ أو تعلمت درسًا؟ أو دَرَّست؟ أو أَلَّفت؟ الحيوان هـو الحيـوان لا يتغير، وأما الإنسان؛ فيرقى، والذى يقول: إن الإنسان مَرَّ بمرحلـة كـان فيهـا قردًا؛ هذا إنسان يُحَقِّرُ بنى جنسه، فالإنسان إنسان، والحيوان حيوان.

وهذا معنى أول من معانى هذه الآية.

والمعنى الثانى: أن هناك صفات أُخرى، فأنت تجـد الطفــل الصغــير إذا أراد أن يلعـب يمتطـى عصـاه وكأنـه فارسُـها، والطفلـة الصـغيرة إذا أرادت أن تلعــب تأخـذ وسـادةً، فتجعلهـا بنتهـا، وتربــط عليهـا، وتسكتهـا، وتلقمهــا صدرهــا، ومعنى ذلك: أن ثمــة فروقًـا نوعيــة بــين الذكــور والإنــاث، وربما لا ترى فرقًا ظاهــرًا بين بُنيــة الطفــل والطفلــة، ولكـن بينهما فى البُنـى النفسيــة والنواحــى الاجتماعيـة فرقًـا شاسـعًا، فهـذه تُعنـى بشـكلها، وتكـون

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مطواعــة، وهـذا يحـاول إثبات شخصيته بوسائل عديدة.

والمعنى الثالث: أنك إن توقَّعت أن يكون الجنين ذكرًا أو أنثى؛ فإن بالعُرَى الملوَّنة (المورِّثات) ثلاثة وعشرين زوجًا، والزوج الأخير إما أن يكون على شكل إكس (x)، أو على شكل واى (y)، فإذا كان على شكل (y) فهو ذكر، وإذا كان على شكل (x)؛ فهو أنثى، وهناك بعض الحالات يتحدد بها نوع الجنين، فترى تحت المجهر، وعن طريق أجهزة بالغة التعقيد.

ثم يتغير هذا النوع بعد فترة من الزمن. فقد حُدِّثت أن طبيبًا من أكـبر أطبـاء الأمــراض النسائية فى بلاد متقدمة ماديًا – أما من حيث الأخـلاق والنواحـــى الأخرى؛ فهى متخلفة جدًا – أراد أن يجرى تجربة، فشَّق بطن زوجتـه، وعـــرف نوع الجنين، وحين الولادة كان الجنين خلقًا آخر! فإذا حاولــت معرفـــة نـــوع الجنين؛ فاعلم أنه ربما كان بعد الولادة خلقًا آخر.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤).

مما يتعلَّق ببركة الله عزَّ وجل فى الخلق أننا خُلقنـا بطريقـةٍ نـتعلَّمُ بهـا طريقـة مجيئنا، وطريقة ذهابنا، وطريقة توالدنا، وطريقة تناسلنا، وطريقة حياتنا، وطريقـة الزواج، وأطوار التَقَدُّم فى السن...، فكيف يتعلَّم الإنسان لو خُلق النـاس جميعًـا على الأرض دفعةً واحدة؟ أو وُلِدوا جميعًا وماتوا جميعًا؟ من يعلِّم الآخر؟ وكيف يتَّعظون بالموت؟ ولكـن خُلِـق النـاس دفعـاتٍ، تـترى، أجيـالاً، حِقَبًـا، أعـمارًا، أجناسًـا، أشـكالاً، مـوزَّعين، فـالأب يعلِّـم الابـن، والأخ الأكـبر يعلِّـــم الأخ الأصغر، والجيـل السـابق يعلِّـم الجيـل اللاحـق، إذًا خُلِـق الإنسـان بمراحـــل متدرجة، وهذا يعلِّمُهُ الشيء الكثير، وتوزيع الحظوظ فى الأرض بين البشر يعلِّـم الشئ الكثير، وتربية الله سبحانه وتعالى للنـاس تربيـةً نفسـيةً؛ بمكافـأة المحسـن ومعاقبة المسـيء؛ يُعلِّم الشيء الكثير، فنحن مخلوقون بطرائق نستفيد منها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذا أيضًا من بركة الله عزَّ وجل.

وربنا عزَّ وجل خلق الإنسان ضعيفًا، ولو خَلَقه قويًا؛ لاستغنى بقوَّته، فشقى باستغنائه، لكن خَلقَه ضعيفًا؛ كي يفتقر يضعفه، فيسعد بافتقاره، وخلقه هلوعًا جزوعًا، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (المعارج: 19-22).

فحتى المصائب من بركة الله عزَّ وجل، فهناك آلاف مؤلَّفة – بل معظم البشر – يعودون إلى الله عزَّ وجل بالتوبة والإنابة والاستسلام والطاعة بعد بعض المصائب، فلو نعلم ما لهذه المصائب من فضلٍ علينا؛ لشكرنا الله عليها بدلًا من أن نجزع منها، فالمرض سببُ الهداية، والضيقُ سببُ الهداية، والفقر سببُ الهداية، فكلمة ﴿فَتَبَارَكَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، تعنى: الخير الكثير الثابت الدائم المستقر، فإذا عرفت الله عزَّ وجل؛ أصابك الخير الثابت، وصار خطُّك البياني فى صعود مستمر، ولا يقف هذا الخط عن الصعود أبدًا، وما الموت إلا نقطةٌ على هذا الخط، ويبقى الخطُّ صاعدًا إلى ما بعد الموت، هذا مِن فعل البركة فى الخلق وأثر من آثارها.

وبعضهم يقف عند هذه الآية: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، وقفة تساؤل: إذًا كم خالقًا فى الأرض؟ القضية سهلة جدًا، فالخلق بمعناه الدقيق: هو أن تصنع شيئًا من شيء، وليس أن تصنع شيئًا من لا شيء؛ والدليل: أن ربنا عز وجل خاطب سيدنا عيسى بقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ (المائدة: ١١٠)، إذًا الخَلْق بمعناه اللغوى: أن تأخذ نِسبًا معيَّنة من بعض المواد، فتصنع منها شيئًا، وهذا الخلق بهذا المعنى الدقيق قد يسهم فيه الإنسان أيضًا، ولكن لو أردت أن تجرى موازنة بين خلق الله عزَّ وجل الكامل وبعض المصنوعات البشرية؛ لوجدت مسافات كبيرة جدًا،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فلابدَّ من طرح سؤال: مَن منا اشترى سيارة، ثم وجد سيارة أخرى ذات قياس صغير قد ولدتها سيارته، فباع الصغيرة، وأبقى على الكبيرة، أو أعطى الثانية لابنه؟! هذه لم نسمع بها فى حياتنا، وأما حصانك أو بقرتك؛ فتتوالد.

وازِن بين أى آلة صنعها الإنسان مع خلق الله عزَّ وجل، فهل يوجد إنسان من شكل (موديل) سبعة وثمانين، أو ستين، أو سبعة وخمسين؟ لم نسمع بهذا أبدًا، فهل طرأ عليه تعديلات أو تحسينات؟ وهل هذا درجة أولى وذاك درجة ثانية؟ ما من مخلوقٍ إلا كان حينما خُلِقَ قِمةً فى الإتقان، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (النمل: ٨٨)، وأنت قد تركب مركبة من أحدث المركبات، فتتوقف فجأةً لسبب تافه جدًا، فهل سمعت عن إنسان وقف لأنه صار به عطل؟ يظل الإنسان ماشيًا ولو كان جائعًا، وفى المركبة ساعة إن لم تنتبه لها؛ يحترق المحرك، إنها ساعة الحرارة، فيا ترى ما هذا الجوع؟ أساعة مرئية هو أم ساعة صوتية؟ إنه جهاز دقيق جدًا، فصنع الإنسان يتكامل؛ لأنه فى الأساس ضعيف، وخبرته تأتى من التجربة، والدليل: إذا طَّلعت على صورة سيارة عام ١٩١٢ م مثلاً، وأجْريت موازنة؛ تجد فيها حركة واحدة، والإضاءة بالفوانيس، ولها صوت يملأ الشّارع ضجيجًا، وسرعتها قليلة جدًا.

وهكذا كانت السيارة سابقًا، حَدَّثنى رجل أن القطار الأول الذى صنع فى بريطانية خصَّصوا له موظَّفًا يمشى أمامه؛ لينبِّه الناس؛ لكيلا يدهسهم، والآن سرعته ثلاث مئة وستين كيلو مترًا فى الساعة الواحدة!

ولو ذهبنا نتحدث عن الموازنة بين خلق الإنسان وخلق خالق الأكوان؛ لقلنا مثلاً: إن هذه العين التى ترى بها رؤية شفافة شفافية تامةً زوَّد الله تعالى قرنيَّتها بطريقة متميزة فى التغذية، فقرنية العين طبقة شفافة لا تتغذى عن طريق الشعريات كأى نسيج من جسم الإنسان، بل تتغذى عن طريق الحلول؛ أى: التسرب؛ من أجل أن تكون رؤيتك صافية تامةً بشفافية تامة، فهذا من تقدير الله

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عز وجل، وأما الشبكية؛ فحجمها تقريبًا ميليمتر وربع، وفيها ١٣٠ مليون مخروط وعصية؛ من أن أجل أن تفرّق بين ثمانية ملايين لون عن طريق المستقبل الضوئى، ولو أن اللون الواحد دُرِّج إلى ٨٠٠ ألف درجة؛ لاستطاعت العين السليمة التفريق بين درجتين، فى حين أن أحدث آلة تصوير رقمية احترافية بالميليمتر مربع لا تزيد مستقبلات الضوء فيها على عشرة آلاف.

وذاكرة الإنسان لا يزيد حجمها على حبة العدس، فكل إنسان عاش ستين سنة تقريبًا فى ذاكرته ستون مليار صورة مرتبة ترتيبًا دقيقًا، وهناك صور يستدعيها مباشرة، وهناك صور تخزن فى مكان بعيد؛ لأنه قلَّما يحتاج إليها، وهناك صور تُمحى، فمن سافر إلى بلد، وأخذ رقم هاتف شركة ما، وهو لا ينوى التعامل مع هذه الشركة؛ فالرقم يمحى فورًا من ذاكرته، فهناك تثبيت، وأولويات، وترتيب، ثم محو، ففى هذا مجال واسع جدًا لكى توازن بين صنعة الله عز وجل وصنعة الإنسان.

ولو وازنت بين هذه الأذن ومكبِّرات الصوت؛ لعلمت أنه ليس فى الأرض جهاز يكبر الصوت ويخفضه فى آن واحد، فيقوم بمهمتين متناقضتين، ولكن إذا كان الصوت ضعيفًا؛ فآلية الأذن تكبر هذا الصوت، وإذا كان الصوت عاليًا جدًا؛ فآلية الأذن تضعفه، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، وأعلى طبيب أسنان مهما تقدمت خبرته لابد له من أن يخدّر المريض كى يقلع سنه؛ لأن التخدير يريحه من ألم القلع، لكن إدخال إبرة المخدر فى اللثة مؤلم جدًا، وأنت تجد طفلاً صغيرًا يفاجأ أن سنه مع طعامه! كيف قلع سنه من دون ألم؟ هذا لطف الله عز وجل.

والحليب فى ثدى المرأة معقم جاهز، وهو ساخن شتاء، بارد صيفًا، ونسبه تتبدل فى أثناء الرضعة الواحدة، فهل بالإمكان، أن نصنع حليبًا، ونضعه فى قارورة، ثم نعطيه للطفل فى البداية ٦٠٪ ماء، و٤٠٪ دسمًا، وفى نهاية الرضعة ٦٠٪ دسمًا، و٤٠٪ ماء؟! هذا فوق طاقة البشر، والله عز وجل ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ (البقرة: ١١٧).

واسأل من يرعى الغنم، وربما تجاوز عدد أغنامه المئات، وقد توالدت، فاسأله: كيف تعرف السخلة أمها؟ كل سخلة تتجه نحو أمها، أو بالعكس، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، فالغنم اجتماعى بطبعه، والكلاب دائمًا متفرقة، فهل يمكنك أن ترعى كلابًا وتسوقها معًا؟ لا تقدر على سوقها؛ إذ كل واحد تتجه فى جهة، لكن الغنم مذلل، ولو كان بأخلاق الضباع، أو بأخلاق الذئاب؛ لما استفدنا منه، والإنسان يفرُّ من أفعى أو من عقرب، وأما الجمل؛ فوزنه ثمان مئة كيلو، وتجد طفلاً يقوده، فمن الذى ذلَّل هذه؟ تمضى كل الحياة، ولا تمضى الموازنة بين خلق الله وصنع الإنسان.

الإنسان يصنع شيئًا لهدف واحد، وأما صنع ربنا عزَّ وجل؛ فكل شيء فيه نستفيد منه، فكل شيء ينتجه الحيوان فيه خير، فالصوف نستفيد منه، والجلد نستفيد منه، والأمعاء نستفيد منها، والعضلات لحم، والعظام لها فوائد، والدهن مواد دسمة، وما تنتجه الحيوانات من الحليب واللبن والجبن...، سبحان الله! وروث الشاة أحسن أنواع السماد، وأغلى أنواع السماد روث الغنم والبقر، فخلق الله عزَّ وجل فضلاته مفيدة، وأما التلوث فى العالم؛ فهو أكبر مشكلة، فهذه المعامل لها فضلات كيميائية، ولها دخان، ولكن روث البقر والدجاج كله مهمة جدًا فى حياتنا، فلا يوجد فى خلق الله شيء يلوث البيئة أو يزعج الحياة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ (المؤمنون: ١٥ - ١٦).

هناك سؤال دقيق: هذا الخلق العظيم خلق مذهل، أبعد هذا يموت الإنسان؟! لئلا يتساءل الإنسان: لماذا الموت؟ جاءت هذه الآية، ومثلاً: إذا إنسانٌ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بنى بناء خلال عشرين سنة، فحفر الأرض، ووضع الأسس، ثم بنى الطابق الأول والثانى، وبَلَّط، ودهن، ووضع الحمَّامات والمطابخ، وعمل مدخلاً فخمًا، وبعدما انتهى سَكنَه خمس سنوات، ثم أحضر آلات فهدمه؛ فإنك تقول: إن هذا الإنسان قد جُنَّ، لماذا هدم بناءه؟ وكذلك الموت هدم للإنسان، فالإنسان خُلِقْ بأبدع صورة، فلماذا الموت؟ هذا موت مؤقَّت، وبعده حياة أبدية، فالإنسان خُلق لكى يحيا حياةً أبدية، وأما الحياة الدنيا وحدها دون موت وآخرة؛ فيصعب تفسيرها، وفيها خلل؛ لأنها خلق عظيم، وعمر قصير، لكن هذه مشيئة الله، وكل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزَّة والجبروت.

الأنبياء يموتون، والأغنياء يموتون، والفقراء يموتون، والذين يعتنون بصحتهم العناية الفائقة يموتون، والذين لا يعتنون يموتون، والذين يغامرون يموتون، والذين لا يغامرون يموتون، فالموت حق، ولما كشف سيدنا الصديق رضى الله عنه عن النبى ﷺ بعد أن وافاه الأجل؛ قال: (بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى؛ طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ؛ لا يُذِيقُكَ الله الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا)، فهذه الموتة لا يوجد غيرها، فإذا اجتهدا المؤمن فى الحياة الدنيا حتى استحق مرضاة الله عزَّ وجل؛ فله موتة واحدة فقط، وبعدها سيخلَّد فى جنَّات الفردوس إلى أبدِ الآبدين، فلولا البعثُ بعد الموت؛ لما كان للحياة من معنى، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وابتلاهم، فوزَّع الحظوظ فى الدنيا توزيع ابتلاء، وسيوزِّع الحظوظ فى الآخرة توزيع جزاء، ومن لوازم الإيمان بالله أن تؤمن بأسمائه كلِّها، ومن أسمائه الحق، وهذا الاسم لا يتحقق إلا يوم القيامة؛ لأنه سبحانه سيجزى فيه كل نفسٍ بما كسبت.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(المؤمنون: ١٧)

إن السماوات التى فوق الأرض سبع سماوات؛ إما سبع بالعدّ الصحيح، وإما سبع كثرة؛ أى: سماوات كثيرة، فالعرب تذكر السبعة وأضعافها للكثرة، فيقولون: (سبعون) للتكثير بالمئات، و(سبع) للعشرات، وعلى كلٍّ هناك مجموعة طبقات فوق الأرض؛ منها: طبقة الهواء الأولى، ويزيد سمكها على ثمانية عشر كيلو مترًا، وفيها الرياح، والسُّحُب، والأمطار، والثلوج، والبَرَد، والطبقة الثانية فيها مواد كبريتية تلقِّح الأمطار، فعن طريقها يصبح الغيم مطرًا، وبعدها طبقة الأوزون، وبعدها طبقة التشّهب، فكل جسم فى السماء إذا وقع على الأرض؛ يتشهَّب فى هذه الطبقة، وبعدها طبقة السُّحُب القطبية...، إلى ما هنالك من معلوماتٍ دقيقة يختصُّ بها علماء الفلك.

فربنا عزَّ وجل جعل السماء فوقنا طبقاتٍ، وكل طبقةٍ لها وظيفة، وهذه الوظائف جمعت فى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ (الأنبياء: ٣٢)، أى: حافظًا للأرض من كل جسم خارجيٍّ عنها، ومن كل أشعةٍ قاتلة، وبعد كل هذه السماوات العُلا ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٧)؛ أى: أن الله سبحانه وتعالى فى السماء إلهٌ، وفى الأرض إلهٌ، وإذا كان قد خلق السماوات؛ فهو إلهٌ فى الأرض، وإذا كان هو الذى خلق المجرَّات، والنجوم، والشموس، والأقمار، والسُّحب؛ فهو نفسه فى الأرض إله.

كما قال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف: ٨٤).

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإيمان بالرسل وموقف أقوامهم منهم

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ
(٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ
فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ
ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ
زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ
إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ
ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ
وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ
أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦)
إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ
لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسْتَـْٔخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا
وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوٓا۟

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾

(المؤمنون: ٢٣ - ٥٢)

تمهيـــــد

بعد أن ذكرا الله الأدلة على وجوده وقدرته فى الأنفس والآفاق التى توجب الإيمان به والغافلون لا ينتبهون لها، ولا يستدلون بها على وحدانية الله، لذا ناسب فى هذه الآيات أن تتحدث عن حكمته من إرسال الرسل، ليبلغوا الناس ويرشدوهم لعبادة الله وحده ونبذ ما سواه...

وقد بين سبحانه حال الأمم الذين كذبوا رسلهم، ووضح سوء عاقبتهم، ليحذر العاقل، وينتفع بالعظة والعبرة منهم، ويقبل على طاعة الله وتوحيده، ويبتعد عن الشرك والضلال.

❁ ❁ ❁

إجمـــال المعنـــى

ذكر الله فى هذه الآيات الكريمات قصة نوح مع قومه بشىء من التفصيل، وقصة الرسل دون تفصيل، وختم بنبينا الكريم ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ (المؤمنون: ٢٣)، دعاهم إلى طاعتنا وتوحيدنا والبراءة من كل صنوف الشرك (فقال) لهم نوح: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ (المؤمنون: ٢٣)، أطيعوا الله وأخلصوا له التوجه فى السر والعلن ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (المؤمنون: ٢٣)، ما لكم من معبود سواه يجوز لكم أن تعبدوه ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٣)، أفلا تخشون بعبادتكم غيره، أن يحل عقابه بكم ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(المؤمنون: ٢٤)، فقال الأشراف من قوله: ما نوح أيها القوم إلا بشر مثلكم إنما هو إنسان مثلكم ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ (المؤمنون: ٢٤)، «يريد أن يصير له الفضل عليكم فيكون متبوعًا وأنتم له تبع ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ (المؤمنون: ٢٤)، ولو شاء الله أن لا نعبد شيئًا سواه، لأرسل بالدعاء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدى إليكم رسالته ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ (المؤمنون: ٢٤)، الذى يدعونا إليه نوح من أنه لا إله لنا غير الله فى القرون الماضية وهى ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٤) (١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (المؤمنون: ٢٥)، اتهموه بالجنون ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ (المؤمنون: ٢٦)، دعا نوح ربه ليستنصر على قومه ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (المؤمنون: ٢٧)، فأمره الله تعالى بصناعة السفينة وإحكامها وإتقانها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (المؤمنون: ٢٧)، وأن يحمل فيها عن كل زوجين اثنين ذكرًا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ (المؤمنون: ٢٧)، من سبق عليه القول من الله بالهلاك وهم الذين لم يؤمنوا به من قومه وأهله كابنه وزوجته والله أعلم ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٧)، عند معاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخذك رأفة بقومك، وشفقة عليهم وطمع فى تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإنى قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٨)، وقد امتثل نوح عليه السلام فذكر الله تعالى عند ابتداء

(١) تفسير الطبرى ٩ / ٢٠٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سيره وعند انتهائه: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٩)، وهو من الدعاء المسنون عند النزول، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ (المؤمنون: ٣٠)، «إن فى هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين دلالة واضحة على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه فاعل لما يشاء قادر على كل شيء، عليم بكل شيء ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٣٠)، لمختبرين للعباد بإرسال الرسل والمرسلين[1].

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (المؤمنون: ٣١)، ثم أنشأ الله بعد قوم نوح قومًا آخرين قيل: المراد بهم عاد فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم. وقيل المراد بهم ثمود لقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ (المؤمنون: ٤١)، فهم الذين عذبوا بالصيحة ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣٢)، هود أرسل لقوم عاد، وصالح لثمود، وكل كذبوا الرسل فاستحقوا الهلاك، وفى هذا عبرة لكل معتبر.

ثم تحدث الآيات عن دور الملأ وموقفهم المعادى من الدعوة ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ﴾ (المؤمنون: ٣٣)، وصف أشرافهم وقادتهم بالكفر والتكذيب ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ (المؤمنون: ٣٣)، كذبوا بما فى الآخرة من الحساب والعقاب أو كذبوا بالبعث ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ ﴾ (المؤمنون: ٣٣)، وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (المؤمنون: ٣٣)، من كثرة الأموال ورفاهة العيش ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (المؤمنون: ٣٣)، قال الملأ لقومهم واصفين الرسول بأنه يساويهم فى البشرية وفى الأكل ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣٣)، منه، وذلك يستلزم عندهم أنه لا

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير ٣ – ٣٢٧ – ٣٢٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فضل له ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ ﴾ (المؤمنون: ٣٤)، فيما ذكر من الأوصاف ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣٤)، مغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم. ثم صرَّحوا بنفى البعث وأنه افتراء على الله ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣٥)، تعودون للحياة بعد الموت ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣٦)، بعدما توعدون أو بعيد ما توعدون ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (المؤمنون: ٣٧)، ما الحياة إلا حياتنا الدنيا لا الحياة الآخرة التى تعدنا بها ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (المؤمنون: ٣٨)، ما هو فيما يدعيه إلا مفتر للكذب على الله. ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (المؤمنون: ٣٨)، بمصدقين له فيما يقوله ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي ﴾ (المؤمنون: ٣٩)، قال نبيهم لما علم بأنهم لا يصدقون البتة: رب انصرنى عليهم وانتقم لى منهم بسبب تكذيبهم إياى ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ (المؤمنون: ٤٠)، قال الله تعالى مجيبًا لدعائه واعدًا له القبول لما دعا به: عما قليل من الزمان ليصبحن نادمين على ما وقع منهم من التكذيب والعناد والإصرار على الكفر ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ﴾ (المؤمنون: ٤١)، وحاق بهم عذابه ونزل عليهم سخطه، وورد أنه «صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم الله بها فماتوا جميعًا، وقيل: الصيحة هى نفس العذاب الذى نزل بهم. ثم أخبر سبحانه وتعالى عما صاروا إليه بعد العذاب النازل بهم فقال: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ (المؤمنون: ٤١)، صرعى هلكى كغثاء السيل وهو الشىء الحقير التافه الهالك الذى لا ينتفع بشىء منه ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (المؤمنون: ٤١)، بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم[١].

(١) جامع القرطبى ١٢٠/ ١١١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ (المؤمنون: ٤٢)، من بعد إهلاكهم ﴿ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ (المؤمنون: ٤٢)، «قيل: هم قوم صالح ولوط وشعيب كما وردت قصتهم على هذا الترتيب فى سور القرآن كالأعراف، وهود.. وقيل هم بنو إسرائيل، والقرون والأمم ،﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٤٣)، ما تتقدم كل طائفة مجتمعة فى قرن آجالها المكتوبة لها فى الهلاك ولا تتأخر عنها[١].

وسلسلة الرسل متصلة ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ (المؤمنون: ٤٤)، مترادفين يتبع بعضهم بعضًا غير متواصلين لأن بين كل نبيين زمانًا طويلاً ﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ (المؤمنون: ٤٤)، بالهلاك، أهلكنا بعضهم فى إثر بعض ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ (المؤمنون: ٤٤)، سمرًا وقصصًا يتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم. وهى جمع أحدوثة.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ (المؤمنون: ٤٥)، بحجة بيّنة من اليد والعصا وغيرهما ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ (المؤمنون: ٤٦)، تعظموا عن الإيمان ﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴾ (المؤمنون: ٤٦)، متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم ﴿ فَقَالُوٓا۟ ﴾ (المؤمنون: ٤٧)،يعنى فرعون وقومه ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ (المؤمنون: ٤٧)، يعنى: موسى وهارون ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴾ (المؤمنون: ٤٧)، مطيعون متذللون. والعرب تسمى كل من دان للملك[٢] عابدًا له ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ التوراة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (المؤمنون: ٤٩)، لكى يهتدى به قومه ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ (المؤمنون: ٥٠)، «دلالة على قدرتنا، ولم يقل آيتين قيل: معناه شأنهما آية. وقيل: معناه جعلنا كل واحد

(١) المصدر نفسه ١٢٠ / ١١١.
(٢) فتح القدير: الشوكانى ٣ / ١٩٢ – ٦٩٤ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

منهما آية ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ (المؤمنون: ٥٠)، الربوة: المكان المرتفع من الأرض ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ (المؤمنون: ٥٠)، مستوية منبسطة واسعة يستقر عليها ساكنوها ﴿وَمَعِينٍ﴾ (المؤمنون: ٥٠)، فالمعين الماء الجارى الظاهر الذى تراه العيون، مفعول من عانه بعينه إذا أدركه البصر(١).

ثم يوجه الله رسله للأكل من الطيبات، وعمل الصالحات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ (المؤمنون: ٥١)، نداء وخطاب لجميع الأنبياء، على معنى أن كلا منهم خوطب به فى زمانه فيدخل تحته عيسى دخولاً أوليا ويكون ابتداء الكلام تنبيهًا على أن تهيئة أسباب التنعم لم تكن له خاصة، وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرع قديم، واحتجاجًا على الرهبانية فى رفض الطيبات أو حكاية لما ذكر لعيسى وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل فى تناول ما رزقا.

والطيبات ما يستلذ به من المباحات. وقيل: الحلال الصافى القوام، فالحلال: مالا يعصى الله فيه، والصافى: مالا ينسى الله فيه والقوام: ما يمسك النفس، ويحفظ العقل ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ (المؤمنون: ٥١)، فأجازيكم عليه ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (المؤمنون: ٥٢)، ملتكم ملة واحدة، أى متحدة فى الاعتقاد، وأصول الشرائع، أو جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد فى العبادة. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ (المؤمنون: ٥٢)، ليس لكم رب سواى تعبدونه وتتقوه.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- تؤكد الآيات حقيقة الإيمان التى جاء بها الرسل جميعا، ويبين كيف كان استقبال الناس لهذه الحقيقة الواحدة التى لا تتبدل على مدار الزمان، وتعدد الرسالات،

(١) تفسير البغوى: ١ / ٤١٨ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فبدأ بذكر نوح عليه السلام ليحدد نقطة البدء، وانتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة قبل الرسالة الأخيرة، ولم يذكر الأسماء وسط السلسلة الطويلة كى يدل على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية، ولتقرير كلمة التوحيد التى جاء بها الجميع، والاستقبال نفسه الذى لقوه من الجميع، فإذا الكلمة التى قالها نوح عليه السلام – هى ذاتها بنصها بقولها كل من جاء بعده من المرسلين فتجيب البشرية جوابًا واحدًا تكاد ألفاظه تتحد على مر الزمان.

- شاءت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر للاقتداء بهم، والكفار يستكثرون أن يرسل الله رسولا من البشر، والاعتراض على بشرية الرسول اعتراض مكرور!
- فى كل زمان، تعرض له كل رسول، فهو اعتراض لا وجه له، لأن الملائكة لا يمكن الاقتداء بهم لاختلاف صفاتهم عن البشر، فاقتضى أن يكون الرسول من البشر.
- أعداء الإسلام يتهمون الرسل والدعاة بأنهم طلاب دنيا ومناصب، وهذا مردود عليهم، لأن الرسل جميعا لم يطلبوا أجرا ولا سيادة على دعوتهم، ورسولنا الكريم ﷺ عرض عليه كل العروض الدنيوية، من منصب وجاه وسيادة وعال ونساء فأبى ترك هذه الدعوة.
- من أساليب أعداء الإسلام إطلاق الشائعات ضد الرسل والدعاة واتهامهم بالكذب والافتراء، كاتهامهم بالجنون، والسحر وغير ذلك، فمن يتعرض من الدعاة لمثل هذا، عليه أن يصبر ويحتسب أجره على الله، ويستمر فى دعوته.
- وعد الله المؤمنين بالنصر، وتوعد الظالمين بالهلاك، فاستجاب سبحانه لنوح عليه السلام، فأرسل الطوفان الذى يجرف كل شىء، ويطهر الأرض من رجس الشرك فتنشأ على نظافة وطهارة الإيمان والتوحيد».
- أمر الله لنوح عليه السلام بصناعة السفينة دليل وجوب الأخذ بالأسباب،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فالمدد والعون الربانى لا يأتى للقاعدين المستريحين المسترخين الذين ينتظرون ولا يزيدون شيئا على الانتظار؛ لذا ضرب عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلين جلسا بباب لا يعملان شيئا .. بالدرة، وقال: إن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

- يحرص المسلم على دعاء الركوب والسفر فهكذا يحمد الله، وهكذا يتوجه إليه، والدعاء دليل على تأكيد العبد لحاجته لربه واللجوء إليه فى السراء والضراء.
- من سنن الله الابتلاء، ابتلاء للصبر، وابتلاء للشكر، وابتلاء للأجر، وابتلاء للتوجه، وابتلاء للتأديب، وابتلاء للتمحيص، وابتلاء للتقويم، وفى قصة نوح أنواع من الابتلاء له، ولقومه، ولأبنائه القادمين.
- الترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويشد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التى تتلقى وتتأثر وتستجيب، ومن هنا يحارب الإسلام الترف، ويقيم نظمه الاجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود فى الجماعة المسلمة، والمترفون هم من أشد الناس إنكارًا للبعث بعد الموت ويعجبون من هذا الرسول الذى ينبئهم بهذا الأمر الغريب، واستعمال لفظ هيهات هيهات دليل شدة الإمعان فى إنكار البعث الذى يعدهم به.
- التعبير بالغثاء وهو يجرفه السيل من حشائش وأعشاب وأشياء مبعثرة لا خير فيها، ولا قيمة لها، ولا رابط بينها، لم يبق فيهم ما يستحق التكريم، فإذا هم غثاء كغثاء السيل، ملقى بلا احتفال ولا اهتمام وهو دليل على الطرد من رحمة الله، وهذا مصير كل فرد، وكل مجتمع يبتعد عن منهج الله.
- أسلوب الاختصار مع التركيز على الموضوع المهم أسلوب قرآنى يحسن مراعاته فى كلامنا وتعبيرنا، فهذه آيات قصيرة لخص الله بها تاريخ الدعوة فى الأمد الطويل بين نوح وهود فى أول السلسلة، وموسى وعيسى فى أواخرها إلى خاتم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المرسلين، عليهم السلام، كل قرن يستوفى أجله ويمضى، وكلهم يكذبون، وكلما كذب المكذبون أخذتهم سنة الله، وبقيت العبرة ماثلة فى مصارعهم لمن يعتبرون.

- إنه نداء للرسل ليباشروا طبيعتهم البشرية التى ينكرها عليهم الغافلون.

فالأكل من مقتضيات البشرية عامة، أما الأكل من الطيبات خاصة فهو الذى يرفع هذه البشرية ويزكيها ويصلها بالملأ الأعلى، وهو سبب فى استجابة الدعاء خاصة وقت الشدة.

- نداء للرسل، ليصلحوا هذه الأرض، فالعمل هو مهمة البشرية لتعمير الأرض، وعدم الإفساد فيها، والعمل الصالح هو الذى يميز الصالحين المختارين فيجعل لعملهم ضابطا وهدفًا، وغاية موصولة بالملأ الأعلى.

- وحدة الرسالة والرسل: يعنى وحدة الأمم، فتتلاشى آماد الزمان، وأبعاد المكان أمام وحدة الحقيقة التى جاء بها الرسل، ووحدة الطبيعة التى تميزهم، ووحدة الخالق الذى أرسلهم، ووحدة الاتجاه الذى تتجهونه أجمعين.

- تحدث الله سبحانه عن حكمته فى هذه الآيات من إرسال الرسل، ليبلغوا الناس ويرشدوهم لعبادة الله وحده ونبذ ما سواه، وتكررت دعوة كل رسول بالوحدانية بنفس الألفاظ، وبينت الآيات جزاء كل من المصدقين والمكذبين، فالرسل الذين دعوا للوحدانية هم مبشرون بالجنة، ومنذرون من النار.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تفرق الأمم بعد رسلهم

تمهيد

لما ذكر فى الآيات السابقة دعوة الرسل للتوحيد خُتمت الآيات هنا بذكر موقف الأمم وتفرقهم، وتلك الحال التى جاء خاتم المرسلين ﷺ فوجدهم عليها، مختلفين متنازعين حول الحقيقة الواحدة التى جاءهم بها الرسل من قبل جميعًا، فكانت رحمة الله برسوله بالتوجه له وتسليته عما يلاقيه من قومه فيها.

❁ ❁ ❁

إجمال المعنى

يخبر الله تعالى عن حال الأمم كيف تفرقوا واختلفوا من بعد رسلهم ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ (المؤمنون: ٥٣)، «فتقطعوا أمر دينهم جعلوه أديانا متفرقة، أو فتفرقوا وتحزبوا ﴿زُبُرٗاۖ ﴾ (المؤمنون: ٥٣)، قطعًا جمع زبور الذى بمعنى الفرقة ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ ﴾ (المؤمنون: ٥٣)، من المتحزبين ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ ﴾ (المؤمنون: ٥٣)، من الدين ﴿فَرِحُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٣)، معجبون معتقدون أنهم على الحق[1]».

ثم يوجه الله رسوله ﷺ ﴿ فَذَرۡهُمۡ ﴾ (المؤمنون: ٥٤)، اترك كفار مكة ﴿فِي غَمۡرَتِهِمۡ ﴾ (المؤمنون: ٥٤)، ضلالتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ (المؤمنون: ٥٤)، إلى حين موتهم ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ ﴾ (المؤمنون: ٥٥)، نعطيهم ﴿مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴾ (المؤمنون: ٥٥)، فى الدنيا ﴿ نُسَارِعُ لَهُمۡ ﴾ (المؤمنون: ٥٦)، نعجل لهم ﴿فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ (المؤمنون: ٥٦)، لا ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٦)، أن ذلك استدراج لهم «ثم بين صفات عباده المؤمنين وهى تتمة للصفات الواردة فى مطلع السورة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) تفسير البيضاوى ١ / ١٥٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم ﴾ (المؤمنون: ٥٧)، خوفهم منه ﴿ مُّشْفِقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٧)، خائفون من عذاب ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ (المؤمنون: ٥٨)، القرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٨)، يصدّقون ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٩)، معه غيره ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٠)، يعطون ﴿ مَآ ءَاتَواْ ﴾ (المؤمنون: ٦٠)، أعطوا من الصدقة والأعمال الصالحة ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ (المؤمنون: ٦٠)، خائفة ألا تقبل منهم ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٠)، معتقدون باليوم الآخر ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦١)، فى علم الله[1]».

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (المؤمنون: ٦٢)، لا يحمّل الله نفسًا فوق طاقتها ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ ﴾ (المؤمنون: ٦٢)، اللوح المحفوظ ﴿ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ (المؤمنون: ٦٢)، يبين بالصدق ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٢)، لا ينقصون من ثواب أعمالكم وأعمالهم، ثم عاد إلى ذكر المشركين ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾ (المؤمنون: ٦٣)، فى جهالة وغفلة ﴿ مِّنْ هَـٰذَا ﴾ (المؤمنون: ٦٣)، الكتاب الذى ينطق بالحق ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٣)، وللمشركين أعمال خبيثة دون أعمال المؤمنين يعملونها ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم ﴾ (المؤمنون: ٦٤)، رؤساءهم وأغنياءهم ﴿ بِٱلْعَذَابِ ﴾ (المؤمنون: ٦٤)، بالقحط والجوع سبع سنين ﴿ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٤)، يضجون ويجزعون.

﴿ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٥)، لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (المؤمنون: ٦٦)، يعنى القرآن ﴿ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ (المؤمنون: ٦٦)، أدباركم ﴿ تَنكِصُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٦)، ترجعون

(١) تفسير الجلالين، المحلى والسيوطى ١/ ٤٥١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

القهقرى مكذبين به ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ ﴾ (المؤمنون: ٦٧)، بالحرم وتقولون: لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم ﴿ سَمِرًا ﴾ (المؤمنون: ٦٧)، سمارًا بالليل ﴿ تَهْجُرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٧)، تهزون وتقولون: الهجر من سبّ النبى ﷺ [١].

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٦٨).

سبب نزول الآية: عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ مستكبرين به سامرًا تهجرون. قال: كان المشركون يهجرون رسول الله ﷺ القول فى سمرهم[٢].

ثم ونجههم الله على تنكرهم للرسول الصادق الأمين الذى يعرفوا سيرته وأمانته ومكانته عندهم زاعمين محافظتهم على ما تركه عليهم آباؤهم ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٦٨)، أو منعهم من الإيمان أنه جاءهم رسول وكتاب، ما جاء آباءهم الأولين، فرضوا بسلوك آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك.

﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٩)، أو منعهم من اتباع الحق أن رسولهم محمدًا ﷺ غير معروف عندهم فهم منكرون له؟

يقولون: لا نعرفه، ولا نعرف صدقه، دعونا حتى ننظر حاله، ونسأل عنه من له به خبرة، فى حين أنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة: - الأمين – فلم لا يصدقون، حين جاءهم بالحق العظيم والصدق المبين؟

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ (المؤمنون: ٧٠)، جنون، فلهذا قال: ما قال، والمجنون غير مسموع منه ولا عبرة بكلامه لأنه يهذى بالباطل، والكلام السخيف.

---

(١) الوجيز للواحدى: ٧٥٠.

(٢) الدر المنثور: السيوطى: ٦ / ١١٠ – ١١١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ورد الله عليهم ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ (المؤمنون: ٧٠)، بالأمر الثابت الذى هو صدق. وعدل لاختلاف فيه ولا تناقض، فكيف يكون به جنون؟!

بل هو فى أعلى درجة الكمال من العلم والعقل، ومكارم الأخلاق، ولكن الحقيقة التى منعتهم من الإيمان أنه جاءهم بالحق ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٠)، وأعظم الحق الذى جاءهم به: إخلاص العبادة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله، وقد علم كراهتهم لهذا الأمر وتعجبهم منه، فكون الرسول أتى بالحق، وكونهم كارهين للحق، بالأصل، هو الذى أوجب لهم التكذيب بالحق لا شكًّا ولا تكذيبًا للرسول كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣)، فإن قيل: لم لم يكن الحق موافقا لأهوائهم لأجل أن يؤمنوا ويسرعوا الانقياد؟! أجاب تعالى بقوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧١)، لأن الأهواء تفسد كل نظام.

ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفاسد من الأخلاق والأعمال فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبنى على الظلم وعدم العدل، فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ (المؤمنون: ٧١)، بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير، الذى به فخرهم وشرفهم، حين يقومون به، ويكونون به سادة الناس ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٧١).

شقاوة منهم، وعدم توفيق، نسوا الله فنسيهم، فالقرآن ومن جاء به، أعظم نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض، فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟ وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران؟

ويستمر تبكيتهم وتوبيخهم ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (المؤمنون: ٧٢)، أو منعهم من اتباعك يا محمد، أنك تسألهم عن الإجابة أجرًا، يتكلفون من اتباعك بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (المؤمنون: ٧٢)، وهذا كما قال الأنبياء لأممهم، ليسوا يدعون الخلق طمعًا فيما يصيبهم منهم من الأموال، وإنما يدعون نصحًا لهم، وتحصيلًا لمصالحهم، بل كان الرسل أنصح للخلق من أنفسهم، فجزاهم الله عن أممهم خير الجزاء، وهذا على سبيل التنبيه لهم أنه لم يسألهم أجرًا، لا أن سألهم(١).

والآيات تركز على وظيفة الرسول ﷺ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المؤمنون: ٧٣)، وأن الذى يدعوهم إليه صراط مستقيم، سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود، حنيفة سمحة، حنيفية فى التوحيد، سمحة فى العمل، فدعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم، موجب لمن يريد الحق أن يتبعك؛ لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه، وموافقته للمصالح، فأين يذهبون إن لم يتبعوك؟ فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم، عن متابعتك، لأنهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٤)، منحرفون عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، ليس فى أيديهم إلا ضلالات وجهالات، وهكذا كل من خالف الحق، لابد أن يكون مخوفًا فى جميع أموره. ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ (المؤمنون: ٧٥)، الجوع، وسبب نزول الآية عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى النبى ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز – يعنى الوبر – بالدم(٢)...

ثم بين أنهم لا يعتبرون حتى نزول العذاب بهم ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ (المؤمنون: ٧٦)، الجوع الذى أصابهم سبع سنين لأن الله ابتلاهم بذلك ليرجعوا

(١) زاد المسير: ابن الجوزى: ٥ / ٤٨٥ – ٤٨٦.
(٢) الدر المنثور: السيوطى ٦ / ١١١ – ١١٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجح فيهم ولا نجح منهم أحد.

﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ (المؤمنون: ٧٦)، ما خضعوا وما ذلوا ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٦)، إليه ويفتقرون، بل مرّ عليهم ذلك ثم زال، كأنه لم يصيبهم، لم يزالوا فى غيهم وكفرهم، وكن وراءهم العذاب الذى لا يردّ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (المؤمنون: ٧٧)، كالقتل يوم بدر وغيره. «وقيل فيه ثلاثة أقوال أحدها: أنه يوم بدر. رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس، والثانى: أنه الجوع الذى أصابهم، قاله مقاتل، والثالث: باب من عذاب جهنم فى الآخرة[1].

﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٧)، آيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فليحذروا قبل نزول عذاب الله الشديد الذى لا يُردّ، بخلاف مجرد العذاب، فإنه ربما أقلع عنهم، كالعقوبات الدنيوية، التى يؤدب الله بها عباده.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- بيّنت الآيات أن الرسل صلوات الله عليهم، أمة واحدة، ذات كلمة واحدة، وهى حكمة التوحيد، ولكن الناس تفرّقوا من بعد الرسل، أحزابًا متنازعة، لا تلتقى على منهج ولا طريق، لأن اتباع غير منهج الله يؤدى إلى التفرق والضلال.
- استعمل القرآن أسلوب التهكم عليهم، والسخرية من غفلتهم، إذ يحسبون أن الإملاء لهم بعض الوقت، وإمدادهم بالأموال والبنين فى فترة الاختبار، مقصود به المسارعة لهم فى الخيرات، وإيثارهم بالنعمة والعطاء، وإنما هى فتنة، وإنما هو الاستدراج، وهو نوع من الابتلاء بالخير.
- لا يجوز لأحد أن يفتر بكثرة طاعته وعبادته، بل عليه الإخلاص فى العمل، ويرجو ربه قبوله، فمن صفات المؤمنين أن قلوبهم وجلة، ومن هنا يبدو

(١) زاد المسير: ابن الجوزى، ٥ / ٤٨٥ – ٤٨٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

أثر الإيمان فى القلب، فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى، وهم يؤمنون بآياته، ولا يشركون به، وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم، وهم يؤتون من الطاعات ما استطاعوا، ولكنهم بعد هذا كله يؤتون وهم خائفون لإحساسهم بالتقصير فى جانب الله، بعد أن بذلوا ما فى طوقهم وهو فى نظرهم قليل.

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها – أنها قالت: يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ (المؤمنون: ٦٠)، هو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يابنة الصديق» ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل[(١)]».

- من صفات المؤمنين أنهم يسارعون فى الخيرات، وهذا واجب كل مسلم، التنافس فى فعل الخيرات، والبعد عن العجز والغفلة.
- تضرع الكفار عند العذاب والشدة، ونسيان الطاعة وقت الرخاء، والواجب طاعة الله وشكره فى السراء والضراء.
- شريعة الإسلام يسيرة سمحة، خالية من التعقيد، والله جعل التكاليف فى حدود الطاقة، فلا عذر لأحد فى ترك طاعة الله، وتمرد أهل المعاصى، ليس فى تكليفهم فوق طاقتهم، إنما العلة أن قلوبهم فى غمرة، لا ترى الحق الذى جاء به القرآن، ويتبعون منهجًا آخر.
- المترفون أشد الناس استغراق فى المتاع والانحراف والذهول عن المصير، وهم أشد عداوة للرسل والدعاة.
- موقف المشركين من القرآن والرسل والدعاة يتكرر فى كل زمان ومكان، فى تهجمهم فى نواديهم وفى سمرهم، فتتخذ منه مادة للسخرية والهزء والاتهام، ومثل هؤلاء فى كل زمان ومكان، وليست جاهلية العرب إلا نموذجا

(١) جامع الترمذى: رقم / ٣٠٩٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لجاهليات كثيرة خلت فى الزمان، وما تزال تظهر الآن، وبعد الآن!

- فنّد القرآن الشبهات التى تصرفهم عن الإيمان، شبهة شبهة، وهذا أسلوب جيد فى الرد على الخصوم، للدعاة أن ينتفعوا به.

- الحق لا يمكن أن يدور مع الهوى، وبالحق تقوم السموات والأرض، وبالحق يستقيم كله، فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة.

- هذه الأمة التى جاء لها الإسلام كانت أولى الأمم باتباع الحق، الذى يتمثل فيه، وما كان لها من مركز لولا الله فى العالمين: وقد تضاءل ذكرها عندما تخلت عنه، فلم تعد فى العير ولا فى التغير، ولن يقوم لها ذكر إلا يوم أن تفيء إلى ربها.

- لا يجوز للدعاة طلب شيء من الناس على دعوتهم، فهم يفرون مما تسألهم من أجر على الهداية، فما عند ربك خير مما عندهم وهذا هو منهج الرسل عليهم الصلاة والسلام – لم يسألوا أقوامهم على دعوتهم أجرًا.

- الابتلاء بالشدة أو الرخاء سنة من سنن الله، ينتفع بها المؤمنون بالآخرة، لا يفيدهم الابتلاء بالنعمة، ولا الابتلاء بالنقمة، فإن أصابتهم النعمة حسبوا أن الله يسارع لهم فى الخيرات، وإن أصابتهم النقمة لم تلن قلوبهم، ولم تستيقظ ضمائرهم، ولم يرجعوا إلى الله يتضرعون له ليكشف عنهم الضر.

- الكلام فى الآيات دار حول رسالة الرسل عليهم السلام، وتبليغهم دعوة الله للبشرية، وتم فيها تركيز الرسل على الوحدانية، وموقف أقوامهم من قضية التوحيد.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مزيد من أدلة إثبات وحدانية الله وقدرته

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (المؤمنون: ٧٩ - ٩٨)

تمهيـــــد

لما ذكر الله حال الأمم وتقطعهم زبرًا بعد رسلهم، ناسب أن يذكر فى هذه الآيات مزيدًا من الأدلة تتمة للأدلة الواردة فى الآيات السابقة الدالة على قدرة الله ليزدادوا علمًا بأنهم لن يفلتوا من عقاب الله إذا استمروا فى مواجهتهم ضد دعوة الله، وتحديهم لوحدانيته.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إجمـــال المعنـــى

مـن رحمـة الله بالإنسـان أن جعـل لـه وسـائل يهتـدى بهـا إلى طريـق الحـق ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ ﴾ (المؤمنون: ٧٨)، لتدركوا بـه المسـموعات فتنتفعـوا فى دينكم ودنياكم، ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ (المؤمنون: ٧٨)، لتدركوا بها المبصرات فتنتفعـوا بهـا فى مصالحكم ﴿ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا ﴾ (المؤمنون: ٧٨)، العقول التى تدركوا بها الأشـياء، وتتميزون بها عن البهائم، فلو أخذ الله سمعكم، وأبصاركـــم، وعقـولكم، بـأن كنتم صمًا عميًا بكمًا ماذا تكون حالكم؟

أفلا تشكرون الذى منَّ عليكـــم بهذه النعم فتوحِّـدُوه وتطيعُـوه؟ ولكـنكم قليل شكركم، مع توالى الـنعم علـيكم ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (المؤمنـون: ٧٨)، يريـد: أنهم لا يشكرون أصلًا، وإن شكروا فشكرهم قليل.

والله هـو الـذى أنعـم علينـا بنعمـة الوجـود ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (المؤمنون: ٧٩)، بثكم فى أقطارها وجهاتها، وسخر لكم ما فى ظاهرهـا وباطنهـا، وجعلهـا كافيـة لمعايشـكم ومسـاكنكم ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (المؤمنـون: ٧٩)، بعد موتكم، فيجازيكم بما عملـتم فى الأرض، مـن خـير وشر، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (المؤمنون: ٨٠)، المتصرف فى الحياة والموت، هو الله وحـده، ثـم يلفـت الأنظار إلى تعاقب الليل والنهار ﴿ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ ﴾ (المؤمنـون: ٨٠)، تعاقبهما وتناوبهما آية لكل معتبر.

ولهذا قال هنا: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٠)، فتعرفون أن الذى وهب لكم من النعم، السمع والأبصار، والأفئدة، والذى نشـركم فى الأرض وحـده، والذى يحيى ويميت وحده، والذى يتصـرف بالليـل والنهـار وحـده، أن ذلـك موجب لكم، أن تخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يتصرف بشىء، بل هو عاجز من كل وجه، فلو كـان لكـم عقـل لم تعبدوا غيره.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وموقف الكفار من الرسل والدعاة لا يتغير ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨١)، بل سلك هؤلاء المكذبون سلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدوه غاية الاستبعاد وقالوا: ﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٢)، هذا لا يتخيل وقوعة – فى زعمهم – ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ﴾ (المؤمنون: ٨٣)، ما زلنا نوعد بأن البعث كائن، نحن وآباؤنا، ولم يأت بعد ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٨٣)، قصصهم وأساؤهم التى يتحدث بها وتلهى، وإلا فليس لها حقيقة، وأنكروا البعث، رغم الأدلة التى ساقها لهم ومنها: ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ (المؤمنون: ٨٤)، قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره، محتجا عليهم بما أثبتوه، وأقروا به من توحيد الربوبية وانفراد الله بها، على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة على ما أنكروه من إعادة الموتى، الذى هو أسهل من ذلك، من هو الخالق للأرض، ومن عليها، من حيوان، ونبات وجماد وبحار وأنهار وجبال، المالك لذلك، المدبر له؟!

وإذ سألتهم عن ذلك قالوا الله وحده. فقل لهم: ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٥)، أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به، مما هو معلوم عندكم، مستقر فى فطركم، قد يغيبه الإعراض فى بعض الأوقات، والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم، بمجرد التأمل، علمتم أن مالك ذلك، هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل، ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ ﴾ (المؤمنون: ٨٦)، وما فيها من النيرات، والكواكب السيارات والثوابت ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (المؤمنون: ٨٦)، الذى هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فمن الذى خلق ذلك ودبره، وصرفه بأنواع التدبير؟

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ (المؤمنون: ٨٧)، سيقرون بأن الله رب ذلك كله، قل لهم حين يقرون بذلك: ﴿ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٧)، تخافون الله وتوحدوه، وفى هذا من لطف الخطاب، من قوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٥)، ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٧)، والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، مالا يخفى، ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله، واسألهم ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (المؤمنون: ٨٨)، ملك كل شىء من العالم العلوى، والعالم السفلى، ما ينصره، وما لا ينصره؟! و«الملكوت» صيغة مبالغة بمعنى الملك: ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ ﴾ (المؤمنون: ٨٨)، عباده من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم مما يضرهم، ﴿ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ (المؤمنون: ٨٨)، لا يقدر أحد أن يُجير على الله، ولا يدفع الشر الذى قدره الله، بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ (المؤمنون: ٨٩)، سيقرون أن الله المالك لكل شىء المجير الذى لا يُجار عليه، ﴿ قُلْ ﴾ (المؤمنون: ٨٩)، لهم حين يقرون بذلك، ملزمًا لهم ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٩)، فأين تذهب عقولكم حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر، المدبر لجميع الأمور، فالعقول التى دلتكم على هذا، لا تكون إلا مسحورة، وهى قد سحرها الشيطان، بما زين لهم، وحسّن لهم، وقلب الحقائق لهم، فسحر عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس. ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ ﴾ (المؤمنون: ٩٠)، بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق، وهو الصدق فى الأخبار العدل فى الأمر والنهى، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع؟

وليس عندعم ما يعوضهم عنه، إلا الكذب والظلم، ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩٠)، فإذا كان الله وحده صنع ذلك، فلا ينبغى أن يكون له شريك ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ (المؤمنون: ٩١)، ممتنع

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عنه الشريك والولد، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلى، على امتناع وجود إلهين فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٤٢)، لا تفرد كل واحد من الألهين بمخلوقاته، واستقل بها ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبته، ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون: ٩١)، فالغالب يكون هو الإله، إلا فمع التمانع لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، فالكون منذ وجد وهو يسير وفق سنن الله ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١)، المدبر إله واحد كامل الأسماء والصفات.

ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط فقال: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ (المؤمنون: ٩٢)، الذى غاب عن أبصارنا وعلمنا، من الواجبات والمستحيلات والممكنات ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ (المؤمنون: ٩٢)، وهو ما نشاهده من ذلك ﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾ (المؤمنون: ٩٢)، ارتفع ارتفع وعظم ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٢)، به، من لا علم عند، إلا ما علمه الله ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٣)، لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة، فلم يلتفتوا لها، ولم يذعنوا لها، حُقّ عليهم العذاب.

ووُعِدُوا بنزوله، وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٣)، وقد أريتنى عذابهم، وأحضرتنى ذلك ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (المؤمنون: ٩٤)، اعصمنى وارحمنى، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم، واحمنى أيضًا من العذاب الذى ينزل بهم، لأن العقوبة العامة إذا نزلت فإنها تعم العاصى وغيره.

قال الله فى تقريب عذابهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٥)، ولكن إن أخرناه فلحكمة، وإلا فنحن قادرون على إيقاعه فيهم.

ومن مكارم الأخلاق التى أمر الله رسوله بها فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ (المؤمنون: ٩٦)، إذا أساء إليك أعداؤك بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء... وعن فوائد ذلك أنه تخف الإساءة عنك فى الحال، وفى المستقبل، وأنه أدعى للتأثير المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل.

ويوصي الله رسوله ﷺ بالصبر والحلم ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٦)، بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم، وأمهلناهم وصبرنا عليهم، والحق لنا، وتكذيبهم لنا، فاصبر على ما يقولون، وقابلهم بالإحسان، هذه وظيفة الداعية فى مقابلة المسيء من البشر، وأما المسيء عن الشياطين فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير، فالوظيفة فى مقابلة أن يسترشد بما أرشد الله إليه رسوله فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ (المؤمنون: ٩٧)، أعتصم بحولك وقوتك متبرئا من حولى وقوتى ﴿مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾ (المؤمنون: ٩٧ - ٩٨)، أعوذ بك من الشر الذى يصيبنى بسبب مباشرتهم، وهمزهم، ومسهم، ومن الشر بسبب حضورهم، ووسوستهم، وهذه الاستعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان، ومن مسه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب وعاءه، سلم من كل شر، ووفق لكل خير. ويستمر التوجيه للرسول ﷺ ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ (المؤمنون: ٩٦)[1] «فيه أربعة أقوال:

أحدها: ادفع إساءة المسيء بالصفح. قاله الحسن.

والثانى: ادفع الفحش بالسلام، قاله عطاء والضحاك.

والثالث: ادفع الشرك بالتوحيد، قاله ابن السائب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والرابع: ادفع المنكر بالموعظة، حكاه الماوردى..

وذكر بعض المفسرين أن هذا منسوخ بآية السيف[١].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٦)، من الشرك والتكذيب. والمعنى: إنا نجازيهم على ذلك ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ (المؤمنون: ٩٧)، ألجأ وأمتنع بك ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (المؤمنون: ٩٧)، وهمزات الشياطين دفعهم بالإغواء إلى المعاصي ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ (المؤمنون: ٩٨)، أن يصيبونى بسُوء، لأن الشيطان لا يحضر ابن آدم إلا بسوء لهم.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- الآيات لفتت أنظار الكفار إلى الدلائل الكونية، علها توقظ وجدانهم إلى توحيد الله وحده، ولو تدبر الإنسان خلقه وهيئته، وما زُوّد به من الحواس والجوارح، وما وهبه من الطاقات والمدارك لوجد الله، ولا اهتدى إليه بهذه الخوارق الدالة على أنه الخالق الواحد، فما أحد غير الله بقادر على إبداع هذه الخلقة المعجزة فى الصغير منها وفى الكبير.

إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها يعد كشفًا معجزا فى عالم البشر. فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذى يعيش فيه الإنسان، فهذه نعم تستوهب الشكر، والشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة وتمجيده بصفاته ثم عبادته وحده.

- الحياة والموت حادثان يقعان فى كل لحظة، وليس إلا الله يملك الموت والحياة، فالذى يهب الحياة هو الذى يعرف سرّها، ويملك أن يهبها، ويستردها، والبشر قد يكونون سببا وأداة لإزهاق الحياة، ولكن هم ليسوا الذين يسلبون حياة

(١) زاد المسير: ابن الجوزى ٥ / ٤٨٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحىّ على وجه الحقيقة، إنما هو الله الذى يحيى ويميت، وحده دون سواه، لذا ما نراه من جهود لمحاولات الاستنساخ لا نعنى أن البشر قادرون على الإحياء، بل هى أسباب، والمحى المميت الحقيقى هو الله وحده.

- البعث حق يجب الإيمان به، ولا يجوز إنكاره كما أنكره الكفار، وقصرت مداركهم عن إدراكه، وإدراك حكمة الله، وقدرته على البعث، وسخروا مما يوعدون من البعث والجزاء بحجة أن هذا الوعد قيل لهم ولآبائهم من قبل، ولم يقع بعد، والبعث جعل الله له موعدًا، وفق تدبيره وحكمته، لا يستقدم ولا يستأخر، تلبية لطلب جيل من أن أجيال الناس، أو استهزاء جماعة من الغافلين.
- وهب الله الإنسان السمع والفؤاد ليكون مسؤولًا عن عمله، مجزيا على صلاحه وفساده: والحساب والجزاء يكونان فى الآخرة، فالمشهود فى هذه الأرض أن الجزاء قد لا يقع، لأنه متروك إلى موعده فى الآخرة، وتأخير العذاب عن هذه الأمة إلى الآخرة إنما ذلك يُعّد إكراما للنبى ﷺ.
- الآيات تثبت القصيدة الصالحة، وترد على المشركين؛ ليصحح فساد معتقداتهم، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذى تقود إليه مسلماتهم، لو كانوا يستقيمون على الفطرة، ولا ينحرفون: فيسألهم عن الربوبية المدبرة، المصرفة للسماوات السبع والعرش العظيم، فمن هو رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟ والدعوة إلى التأمل والتفكير فى هذه المخلوقات عبادة، ودعوة.
- توظيف الأدلة العقلية توظيف مهم لإقامة الحجة على الجاحدين، وهذا ما تم الرد به على الكافرين المعاندين، كنفى الشريك عن الله، تقرير حقيقة ما جاءهم به الرسول ﷺ من التوحيد، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك، فالآيات ناقشت المسألة بدليل عقلى مقنع، فلو كان للكون إلهين، لآل الملك لواحد منهما

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذى لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد، وتصريف واحد وتدبير واحد.

- توجيهات للرسول ﷺ للمفاصلة والاستعاذة من الشيطان، والصبر على ما يقولون وطلب الرسول ﷺ ألا يجعله الله مع القوم الظالمين حين يحل بهم العذاب الأليم، ويتحقق ما يوعدون، ما هو إلا طلب للزيادة فى الترقى، وتعليم لمن بعده ألا يأمنوا مكر الله، وأن يظلموا أبدًا أيقاظًا، وأن يلوذوا دائما بحماه، ولقد أراه بعض ما وعدهم فى غزوة بدر، ثم فى الفتح العظيم – فأما حين نزول هذه السورة – وهى مكية – فكان منهج الدعوة دفع السيئة بالتى هى أحسن، والصبر حتى يأتى أمر الله، وتفويض الأمر لله بعد الأخذ بالأسباب.

- استعاذة الرسول ﷺ من همزات الشياطين ودفعاتهم – وهو معصوم منها – زيادة كذلك فى الترقى، وزيادة الالتجاء إلى الله، وتعليم لأمته، وهو قدوتها وأسوتها أن يتحصنوا بالله، من همزات الشياطين فى كل حين، بل إن الرسول ليوجه إلى الاستعاذة بالله من مجرد قرب الشياطين لا من همزاتهم ودفعاتهم.

- اشتملت هذه الآيات على أدلة عديدة أقامت الحجة على المشركين وأثبتت التوحيد الخالص لله، ولو فكر هؤلاء بأدنى تفكير فى مخلوقات الله فإنه لا يملك إلا التسليم والطاعة لله، واتصفوا بالصفات الواردة فى مطلع السورة.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من مشاهد يوم القيامة

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (المؤمنون: ٩٩ - ١١٨)

تمهيد

لما ذكر الله تعالى مزيدًا من الأدلة الدالة على وحدانيته فى الآيات السابقة، فربما كثير من الكفار والمشركين، لا ينتفعون بها، ولا ينتفعون بما وهبهم الله من نعمه السمع والبصر والفؤاد، ناسب فى هذه الآيات أن يذكرهم بنهاية آجالهم،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبالعذاب الأليم الذى ينتظرهم فى الآخرة فلا تغرنهم هذه الحياة الدنيا، ولا يملكون وسيلة للعودة للحياة ثانية ليصلحوا ما أفسدوه من قبل.

❁ ❁ ❁

إجمال المعنى

يخبر الله سبحانه وتعالى عن حال من حضره الموت ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ (المؤمنون: ٩٩)، فإن كان من المعرضين الظالمين: سيندم فى تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهد قبح أعماله، فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها، وإنما ذلك يقول: ﴿ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ (المؤمنون: ١٠٠)، من العمل، وفرطت فى جنب الله. ﴿ كَلَّآ ﴾ (المؤمنون: ١٠٠)، لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون ﴿ إِنَّهَا ﴾ (المؤمنون: ١٠٠)، مقالته التى تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ (المؤمنون: ١٠٠)، مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضًا غير صادق فى ذلك، فإنه لوُدَّ لعاد لما نُهى عنه، ثم أخبر أن هؤلاء الكفار المنكرين للبعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند الموت. فإن قيل: كيف قال ارجعونى وهو يريد أرجعنى، فالجواب: أن هذا اللفظ تعرفه العرب للعظيم الشأن وذلك أنه يخبر عن نفسه فيه بما تخبر به الجماعة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ ﴾ (ق: ٤٣)، فجاء خطابه كإخباره عن نفسه(١).

﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٠)، من أمامهم وبين أيديهم برزخ وهو الحاجز بين الشيئين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفى هذا البرزخ يتنعّم المطيعون، ويعذب العاصون، ومن موتهم إلى يوم يبعثون، فليعدُّوا له عدته، وليأخذوا له أهبته.

(١) زاد المسير: ابن الجوزى ٥ / ٤٨٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠١)، يخبر المولى تبارك وتعالى عن هول يوم القيامة، وما فى ذلك اليوم، من المزعجات والمؤلمات والمقلقات، وأنه إذا نفخ فى الصور نفخة البعث فحشر الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم، التى هى أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحدًا عن حاله، لاشتغاله بنفسه، فلا يدرى هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ وفى القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها، كالميزان الذى يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ما له وما عليه، حتى ما كان مثقال ذرة، من الخير والشر، ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ (المؤمنون: ١٠٢)، بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٢)، لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ (المؤمنون: ١٠٣)، بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت به خطيئته، ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ (المؤمنون: ١٠٣)، خسارة، لا تعد لها خسارة، حسبهم ما سيؤولون إليه ﴿ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٣)، لا يخرجون منها أبد الأبدين، ولكن من مات من أهل المعاصى من غير المشركين والكافرين، فإنه وإن دخل النار لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى سوء مصير الكافرين فقال: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (المؤمنون: ١٠٤)، تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطع لهبها عن وجوههم، ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٤)، قد عبست وجوههم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه، فيقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (المؤمنون: ١٠٥)، تدعون بها، لتؤمنوا، وتعرض عليكم لتنظروا. ﴿ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٥)، ظلما منكم وعنادًا وهى آيات بينات، دالّات على الحق والباطل، مبينات للمحق والمبطل فحينئذ أقروا بظلمهم حيث لا ينفع الإقرار ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ شِقْوَتُنَا ﴾ (المؤمنون: ١٠٦)، غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٦)، كانوا ضالين فى عملهم.

وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، فعلنا فى الدنيا فعل التائه، الضال السفيه ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٧)، وهم كاذبون فى وعدهم هذا، ولم يبق الله لهم حجة، فأجابهم الله ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (المؤمنون: ١٠٨)، وهذا القول أعظم ألوان التوبيخ، والذل، والخسارة، والتأييس من كل خير، والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم أشد عليهم وأبلغ فى نكايتهم من عذاب الحميم.

«تتكلمون فى رفع العذاب عنكم، فإنه لا يرفع ولا يخفف، قيل: هو آخر كلام يتكلمون به ثم ولا كلام بعد ذلك ».

ثم ذكر الحال التى أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال: (إنه كان فريق من عبادى يقولون: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٩).

فجمعوا بين الإيمان المقتضى لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومنته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفى ضمنه ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم.

فهؤلاء سادات الناس وفضلائهم ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ ﴾ (المؤمنون: ١١٠)، أيها الكفرة الأنذال، ناقصو العقول والأحلام ﴿ سِخْرِيًّا ﴾ (المؤمنون: ١١٠)، يهزؤون بهم وتحتقرونهم حتى اشتغلتم بذلك.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سبب نزول الآية

«نزلت فى كفار قريش مع صهيب وعمار وبلال ونظرائهم ثم هى عامة فيمن جرى مجراهم قديما وبقية الدهر، وكسرها من السخر وهو الاستهزاء ومعنى الاستهزاء هنا أليق[1]».

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٠)، وهذا الذى أوجب لهم نسيان الذكر وعبادة الله، واشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة. جراءة؟!

﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ (المؤمنون: ١١١)، على طاعتى، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلى ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ (المؤمنون: ١١١)، بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم.

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (المؤمنون: ١١٢)، لهم على وجه اللوم، وأنهم سفهاء الأحلام حيث اكتسبوا فى هذه المدة اليسيرة كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون من الخير، الذى يوصلهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربهم.

﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ (المؤمنون: ١١٣)، كلامهم هذا مبنى على اقتصارهم جدًّا لمدة مكثهم فى الدنيا، وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقدارة، ولا يعنيه، فلهذا قالوا: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ (المؤمنون: ١١٣)، الضابطين لعدده، وأما هم ففى شغل شاغل، وعذاب مذهل، عن معرفة عدده، فقال لهم: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ (المؤمنون: ١١٤)، سواء عنيتم عدده أم لا ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٤)، وأنى لهم العلم ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، أيها الخلق ﴿أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ (المؤمنون: ١١٥)، سدى وباطلاً، تأكلون وتشربون

(١) تفسير النسفى ٣ / ١٣٢. تفسير الثعالبى ١ / ١٠٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتمرحون، وتتمتعون بلذات الدنيا ونترككم لا نأمركم، ولا ننهاكم ولا نثيبكم، ولا نعاقبكم؟ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، لا يخطر هذا ببالكم ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ (المؤمنون: ١١٦)، تعاظم وارتفع عن هذا الظن الباطل ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون: ١١٦).

فكونه ملكا للخلق كلهم حقا، فى صدقه، ووعده، ووعيده، مألوهًا معبودًا، لما له من الكمال ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون: ١١٦) ، فما دونه من باب أولى يمنع أن يخلقكم عبثا ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ (المؤمنون: ١١٧).

ومن دعا مع الله آلهة غيره بلا بينة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله، فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلانه، ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلمًا وعنادًا، فهذا سيقدم على ربه، فيجازيه بأعماله، ولا يُنيله من الفلاح شيئًا، لأنه كافر، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٧)، فكفرهم منعهم من الفلاح.

﴿وَقُل﴾ (المؤمنون: ١١٨)، داعيا لربك مخلصًا له الدين ﴿رَّبِّ اغْفِرْ﴾ (المؤمنون: ١١٨)، لنا حتى تنجينا من المكروه، وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (المؤمنون: ١١٨)، فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- بعد تذكير الكفار بالأدلة العظيمة فى أنفسهم وفى الآفاق، بتركهم إلى مصيرهم المحتوم يتوجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ ليعلمه مكارم الأخلاق،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وأن لا يغضب لعنادهم، وأن يدفع السيئة بالحسنى، وأن يستعيذ بالله من الشيطان بل من الشياطين التى تقودهم إلى الضلال المبين، وهذا تعليم لأمته ﷺ بتفويض الأمر لله بعد الأخذ بالأسباب، والدفع بالتى هى أحسن، والاستعاذة من همزات الشياطين.

وهذه توجيهات ربانية يجب على كل مسلم أن يتحلى بها.

- الحث على التوبة قبل الموت، وطلب الرجعة إلى الحياة، لتدارك ما فات، والإصلاح فيما ترك وراءه من أهل ومال، وطلب الرجوع للدنيا، كلمة لا معنى لها، ولا مدلول وراءها، ولا تنبغى العناية بها أو بقائلها، والندم بعد فوات الأوان لا ينفع.
- حياة البرزخ حق يجب الإيمان به، والاستعداد له، والأموات فلا هم من أهل الدنيا، ولا هم من أهل الآخرة، إنما هم فى ذلك البرزخ بينهما إلى يوم يبعثون، وعذاب القبر حق، فهلا للعاقل أن يستعد للقاء ربه، ويعلم أن الحياة الدنيا قصيرة.
- انقطاع الأنساب والوشائج يوم القيامة، فلا ينفع أحدٌ أحدًا، إنما تقطعت الروابط، وسقطت القيم التى كانوا يتعارفون عليها فى الدنيا، ولا واسطة إلا العمل الصالح.
- يجب تنزيه الله سبحانه وتعالى عما يقولون ويصفون، فهو الملك الحق، والمسيطر الحق، الذى لا إله إلا هو.
- كل ما يراه الناس على الكافرين من نعمة ومتاع، وقوة وسلطان فى بعض الأحيان، فليس فلاحًا فى ميزان القيم الحقيقية، إنما هو فتنة واستدراج، ينتهى بالوبال فى الدنيا، فإن نجى بعضهم فى الدنيا، فالآخرة تنتظره، والآخرة أشد وأنكى.
- يعرض ميزان الحساب وعملية الوزن فى سرعة واختصار، بالعدل التام،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فهنيئًا لمن ثقلت موازينه فهم المفلحون الذين ذكروا فى مطلع السورة، وتعسًا لمن خفت موازينه، فى جهنم خالدون، وهؤلاء الذين خفّت موازينهم خسروا كل شىء.

- تصوير حال الكافرين يوم القيامة وهم تلفح النار وجوههم حتى تكلح، وتشوه هيئتها، ويكدر لونها، على العاقل أن يرهب منه.
- أسلوب العذاب المعنوى، فالعذاب الحسى – على فظاعته – أهون من التأنيب والخزى الذى يصاحبه، وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة.
- الاستهزاء بالرسل والمؤمنين جريمة أخرى بعد جريمة الكفر تدخلهم النار، فقد بلغ السفه بالكفار أن سخروا، وضحكوا منهم حتى ألهاهم عن ذكر الله، وباعد بينهم وبين التدبر والتفكير فى دلائل الإيمان المبثوثة فى صفحات الوجود.
- تنتهى السورة بتقرير الإلهية الواحدة، وتحذير من يدعون مع الله إلها آخر، وإعلان الخسارة الكبرى لمن يشركون بالله، فى مقابل الفلاح فى أول السورة الذى وعد الله به المؤمنين.
- لا يجوز الدعاء إلا إلى الله وحده، لأنه لا يملك إجابة الدعاء إلا هو سبحانه. ومن هنا وجهت هذه الآيات إلى الله فى طلب الرحمة والغفران، وهو أرحم الراحمين، وبرحمته يتم الفوز والفلاح.
- ذكرت الآيات مشاهد ومقاطع من أحوال يوم القيامة لتذكير الناس أنهم إذا استطاعوا إنكار وحدانية الله فى الدنيا، وأخر عذابهم فلن يملكوا فى الآخرة إلا الاعتراف والإقرار بوحدانيته سبحانه وتعالى، ولكنهم لا يستطيعون الرجوع إلى الدنيا.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب